شعر أبي زُبيد الطائي " دراسة تحليلية "

للدكتورة / ناهد أحمد السيد الشعراوي

مدرس بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أبو زُبيد الطائى

هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة بن النعمان بن حية بن سعنة ابن الحارث بن ربيعة بن مالك بن سكر بن هنىء بن عمرو بن الغوث بن طىء بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان(١) .

ونشأ أبو زبيد نصرانياً ، وكان أبو زبيد من المعمرين ، وقيل إنه عاش مائة وخمسين سنة(٢) ، وعاش أبو زبيد إلى أيام معاوية(٣) .

ونلمح أخباراً عن هيئته عند ابن حبيب ، والمبرد ، وياقوت ، إذ يذكر المبرد أنه كان موصوفاً مع جماعة قد فاقوا الناس طولاً وجمالاً ، منهم العباس بن عبد المطلب رحمه الله وولده ، وجرير بن عبد الله البَجَلى ، وزيد الخيل بن مهلهل الطائى، ثم يقول : وكان أهد هؤلاء يُقَبل المرأة على الهودج ، وكان يقال للرجل منهم، مقَبل الظُعُن(٤) .

ويذكر ياقوت صفة الطول فيه ، يقول : وكان أبو زبيد طوالاً من الرجال ، ينتهى إلى ثلاثة عشر شبراً ، وقد ذكره ابن حبيب (٥) تحت عنوان " من كان يركب الفرس الجسيم فتخط إبهاماه فى الأرض كما يذكر ياقوت حسن شكله فيقول : " وكان حسن الصورة ، فكان إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله(٦) " .

---

١ – الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ١٢ صـ١١٨

٢ – المعمرون للسجستانى صـ١٠٨

٣ – خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى جـ٤ صـ١٩٢

٤ – الكامل للمبرد جـ٢ صـ٤٥٩

٥ – المحبر لابن حبيب صـ٢٣٣

٦ – معجم الأدباء لياقوت الحموى جـ١٠ صـ١٩١ .

فأبو زبيد شاعر من طيء ، وكانت قبيلة طيء باليمن ، " ثم خرجت على أثر الأزد إلى الحجاز ونزلوا سميراً وفيداً في جوار بني أسد ، ثم استولوا على أجأ وسلمى، وهما جبلان من بلاد بني أسد ، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبل طيء(١)".

ويرجع أبو زبيد في نسبة إلى النعمان بن حية بن سعنة كما أسلفنا . وهو الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى ، وكان له شأن يذكر عند الفرس ، وهذا يعني أن الشاعر كان ينحدر من أسرة معروفة في طيء ، وربما يكون ذلك سبباً من الأسباب التي حملت الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على استعماله على صدقات قومه ، على الرغم من أنه لم يستعمل نصرانياً غيره أوردا بن سلام الجمحي : أن أبا زبيد كان من زوار الملوك ، ولملوك العجم خاصة ، وكان عالماً بسيرهم(٢) .

وحدث عمارة بن قابوس قال : " لقيت أبا زبيد الطائي ، فقلت له يأبا زبيد ، هل أتيت النعمان بن المنذر ، قال : أي والله ، لقد أتيته وجالسته ، قلت : فصفة لي فقال : كان أحمر أزرق أبرش قصيراً ، فقلت له : أيسرك أنه سمع مقالتك هذه ، وإن لك حمر النعم ، قال : لا والله ولا سودها ، فقد رأيت ملوك حمير ورأيت ملوك غسان في ملكها فما رأيت أشد عزاً منه . كان ظهر الكوفة ينبت الشقائق فحمى ذلك المكان، فنسب إليه ، فقيل شقائق النعمان فجلس ذات يوم هناك وجلسنا بين يديه كأن على رؤوسنا الطير ، فقام له رجل من الناس ، فقال له أبيت اللعن .....(٣) "

وأما عن لقائه بالخليفة عثمان بن عفان " رضي الله عنه " ، فيأتي الخبر عند ابن سلام وينقله أبو الفرج عنه ، ويرد أيضاً عند ياقوت : " كان أبو زبيد من زوار الملوك وخاصة لملوك العجم ، وكان عالماً بسيرهم . وكان عثمان بن عفان " رضي الله عنه " يقرب أبا زبيد ، ويبني مجلسه لمعرفته بسير من أدركهم من ملوك

---

١ – ديوان أبي زبيد – نوري القيسي صـ٥٦٠

٢ – طبقات فحول الشعراء لابن سلام صـ٥٩٣ : ٥٩٤

٣ – الأغاني جـ١٢ صـ١٢٥

العرب والعجم . فحضر ذات يوم عثمان وعنده المهاجرون والأنصار ، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارها . قال : فالتفت عثمان إلى أبي زبيد ، وقال : يا أخا تبع المسيح أسمعنا بعض قولك ، فقد أنبئت أنك تجيد . فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

من مبلغ قومي النائلين إذ شحطوا أن الفـــؤاد إليهم شـــيق ولع

ووصف فيها الأسد فقال عثمان : تالله لقد تذكر الأسد ما حييت .! والله إني لأحسبك جباناً هداناً ، فقال : كلا ياأمير المؤمنين ، ولكني رأيت منه منظراً وشهدت منه مشهداً ، لا يبرح ذكره يتجدد في قلبي ، ومعذور أنا ياأمير المؤمنين غير ملوم. فقال عثمان : وأنىّ كان ذلك ؟ قال : خرجت في صيابة أشراف من أفناء قبائل العرب، ذوي هيئة وشارة حسنة ، ترتمي بنا المهارى بأكسائها ، ونحن نريد الحارث بن ابي شمر الغساني ملك الشام . فاخروط بنا المسير في حمارة القيظ ..... فقال له عثمان : اسكت ، قطع الله لسانك ! فقد رعبت قلوب المؤمنين"(١) .

أخباره مع الوليد بن عقبة :

الوليد بن عقبة هو أخو الخليفة : عثمان بن عفان لأمه . أمهما أروى بنت كُرَيْز ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب . وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم وكان فاسقاً . وولى لعثمان رضى الله عنه الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فشرب الخمر ، وشهد عليه بذلك ، فعده وعزله .

وكان أبو زبيد الطائي نديماً للوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة ، فأنزله الوليد داراً لعقيل بن أبي طالب على باب المسجد ، فاستوهبها منه فوهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأن أبا زبيد كان يخرج من منزله حتى يشق الجامع إلى الوليد ، فيسمر عنده ، ويشرب معه ، ويخرج فيشق المسجد وهو سكران فذلك نبههم عليه(٢) .

---

١ - طبقات فحول الشعراء صـــ٥٩٥ ، الأغاني جـ١٢ صـــ١١٨ : ١٢٢

٢ - الأغاني جـ٥ صـــ١٢٤

وكان أبو زبيد قد استودع بنى كنانة بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب إبلاً ، فلم يردوها عليه حين طلبها ، وكانت بنو تغلب أخوال أبى زبيد ، فوجد الوليد بنى تغلب ظالمين لأبى زبيد ، فأخذ له الوليد بحقه ، فقال يمدح الوليد :

ياليت شعرى بأبناء أنبؤها ... قد كان يعيا بها صدرى وتقديرى
عن امرىء ما يزده الله من شرف ... أفرح به وُمرىٌ غير مسرورِ

يعنى مُرى بن أوس بن حارثة بن لأم . وهى طويلة يقول فيها :

إن الوليد له عندى وحق له ... ودّ الخليل ونصح غير منحور
لقد رعانى وأننانى وأظهرنى ... على الأعادى بنصر غير تعنير
فشذب القوم عنى غير مكترث ... حتى تناهوا على رغم وتصغير
نفسى فداء أبى وهب وقل له ... ياأم عمرو فحلى اليو أو سيرى

وفى رواية ابن حبيب : ياأم زيد ، يعنى : ياأم أبى زبيد(١) .

وخبر آخر يرويه أبو الفرج عن إقطاع الوليد أرضاً لأبى زبيد يقول(٢) :

" كان الوليد بن عقبة قد استعمل الربيع بن مرى بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة ، وكان أبو زبيد فى تغلب فخرج بهم ليرعيهم فأبى عليه الأوسى ، وقال : إن شئت أن أرتعيك وحدك فعلت وإلا فلا ، فأتى أبو زبيد الوليد بن عقبة فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام إلى القصور الحمر من الحيرة وجعله له حمى ، وأخذها من الآخر ".

وشعره فى ذلك يدل على هذه الأحداث يقول :

لعمر أبيك ياابن أبى مُرَىٍّ ... لغيرك من أباح لها الديارا
أباح لها أبارق ذات نور ... ترعى القف منها والعرارا
بحمد الله ثم فتى قريش ... أبى وهب غدت بطناً غرارا

---

١ - الأغانى جـ٥ صـ١٢٥

٢ - المرجع السابق جـ٥ صـ١٢٥

أبـــاح لهـــا ولا يُحمـــى عليهـــا ... إذا مـــا كنتـــم ســـنة جـــزارا
يريـد جـزراً مـن الجـدب والشـدة
فتـــى طالت يـــداه إلـــى المعـــالى ... وطَحطَحـــا المقطعـــة القصـــارا

ولما عزل الوليد ووليهاسعيد انتزعها منه وأخرجها من يده ، فقال(١) :

ولقـــد مـــتُّ غـــير أنـــى حـــىٌّ ... يـــوم بـــانت بودهـــا خنســـاءُ
مـــن بنـــى عـــامر لهـــا شـــق نفســـى ... قســـمة مثـــل مـــا يشـــق الـــرداء
أشـــربت لـــون صفـــرة فـــى بيـــاض ... وهـــى فـــى ذاك لدنـــة غيـــداء
كـــل عيـــن ممـــن يراهـــا مـــن النـــا ... س إليهـــا مديمـــة حـــولاء
فـــاتتهوا إن للشـــدائد أهـــلاً ... وذروا مـــا تزيـــن الأهـــواء
ليـــت شـــعرى وأيـــن منـــى ليـــتٌ ... إن ليتـــاً وإن لَـــوّاً عنـــاء
أى ســـاع ســـعى ليقطـــع شـــربى ... حيـــن لاحـــت للصـــابح الجـــوزاء
واستظل العصفور كرهاً مع الضـــ ... ـــب وأوفـــى فـــى عـــوده الحربـــاء
ونفـــى الجنـــدب الحصـــا بكـــرا عيـــ ... ـــه وأذكـــت نيرانهـــا المعـــزاء
مـــن ســـموم كأنهـــا حـــر نـــار ... ســـفعتها ظهـــيرة غـــراء
وإذا أهـــل بلـــدة أنكرونـــى ... عرفتنـــى الدويـــة الملســـاء
عرفـــت نـــاقتى الشـــمائل منـــى ... فهـــى إلا بغامهـــا خرســـاء
هـــرفت ليلهـــا الطويـــل وليلـــى ... إن ذا الليـــل للعيـــون غـــطاء .

ويُروى " أن مات الوليد قبل أبى زبيد ، فمر أبو زبيد بقبره فوقف ثم قال :

ياهـــاجرى إذ جئـــت زائـــره ... مـــا كـــان مـــن عـــاداتك الهجـــر
ياصـــاحب القـــبر الســـلامُ علـــى ... مـــن حـــال دون لقائـــه القبـــر

ثم انصرف ، وكان يجىء إلى قبره فيشرب عنده ويصب الشراب على قبره ويبكى ويبقى أبو زبيد إلى معاوية "(٢)

---

١ - المرجع السابق جـ٥ صـ١٢٦
٢ - خزانة الأدب جـ٤ صـ١٢٩

والثابت أنهما نُفنا فى موضع واحد بالبليخ(١) ، ويدل ذلك شعر لأشجع السلمى وقد مرّ بقبريهما ، قال(٢) :

مـــررت علـــى عظـــام أبـــى زبيـــد ... وقـــد لاحـــت ببلقعـــة صلـــود
وكـــان لـــه الوليـــد نديـــم صـــدق ... فنـــادم قـــبره قـــبر الوليـــد
ومـــا أدرى بمـــن تبـدا المنـــايا ... بأحمـــد أو بأشـــجع أو يـــزيد

إســـــلامه :

اجتهد العلماء فى البحث عن أديان القبائل العربية قبل الإسلام ، وذكر أصنامهم ومعابدهم وتلبياتهم وأصحاب الكتب السماوية منهم " وطىء إحدى القبائل العربية التى تنازعتها الأديان وقد غلبت عليها النصرانية والوثنية "(٣) .

وقد كان للاتصال الدائم بين طىء وأهل الشام أثره فى أن تفد الديانة النصرانية إليهم ، وأن تستقر فى نفوس كثير منهم . ويذكر د . جواد على أديان القبائل ، فيقول :

" تعد طىء من القبائل التى وجدت النصرانية سبيلاً إليها(٤) .

وأما بعد الإسلام فقد تتابعت بطون طىء فى الدخول فى الإسلام ، حتى اكتمل بوفاة زيد الخيل على رأس قومه من طىء مبايعةً بإسلام قومه سنة تسع للهجرة وهى السنة التى عرفت بسنة الوفود . وتنقل بعض المصادر عن رجال من طىء قالوا :

قدم وفد طىء على رسول الله " صلى الله عليه وسلم " خمسة عشر رجلاً رأسهم وسيدهم زيد الخير وهو زيد الخيل بن مهلهل من بنى نبهان ، وفيهم وزر بن جابر بن سدوس بن أجمع البنهانى وقبيصة بن الأسود بن عامر من جرم طىء ،

---

١ - نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون

٢ - الأغانى جـ٥ صـ١٣٤

٣ - شعر طىء وأخبارها فى الجاهلية والإسلام ، د . وفاء فهمى السنديونى صـ٨١

٤ - المفصل فى تاريخ العرب د . جواد على ٦٠١/٦

ومالك بن عبد الله بن خيبرى من بنى معن وقعين بن حليف بن جديلة ، ورجل من بولان . فدخلوا المدينة ورسول الله " صلى الله عليه وسلم " فى المسجد فعقدوا رواحلهم بفناء المسجد ، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا . وجازاهم بخمس أواق فضة كل رجل منهم وأعطى زيد الخيل إثنتى عشرة أوقية ونشًا وقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : ما ذكر لى رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لى ، إلا ما كان من زيد فإن لم يبلغ فيه كل ما فيه ، وسماه رسول الله " صلى الله عليه وسلم " زيد الخير ، وقطع له فيداً وأرضين فكتب له بذلك كتاباً ورجع مع قومه (١) .

وتذهب بعض المصادر(٢) إلى أن أبازبيد كان نصرانياً ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وإنه على دينه (النصرانية) مات ، بينما يذكر الطبرى عنه (٣) أنه أسلم فى آخر إمارة الوليد ، وحسن إسلامه ، فاستدخله الوليد ، وكان عربياً شاعراً حين قام على الإسلام ". ويؤيد ابن الأثير هذه الرواية فيقول : " وكان أبو زبيد الشاعر فى الجاهلية والإسلام فى بنى تغلب ، وكان أخوالـه . فظلموه ديناً له ، فأخذ له الوليد حقه إذ كان عاملاً عليهم ، فشكر أبو زبيد ذلك له ، وانقطع إليه ، وغشيه بالمدينة والكوفة ، وكان نصرانياً فأسلم عند الوليد ، وحسن إسلامه (٤) .

وقد تقدم خبر مرور أبى زبيد بقبر الوليد ، وشعره فى ذلك .
كما تذكر الرواية أن أبازبيد كان يجئ إلى قبر الوليد فيشرب عنده ، ويصب الشراب على قبره ويبكى . كما تقدم خبرُ مرور أشجع السلمى بقبريهما بالبليخ ، وأبياته فى ذلك .
ودفنه بالبليخ إلى جوار الوليد دليل آخر على إسلامه ، فالمعروف أن مقابر المسلمين لا يُدفن إلا المسلمون .

---

١ – تاريخ الطبرى جـ٣ صـ١٤٥
٢ – معجم الأدباء جـ١٠ صـ١٩١– الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٣٠٧
٣ تاريخ الطبرى جـ٣ صـ٢٧٣
٤ – الكامل لابن الأثير ٤٣/٣

موضوعات شعره

أولاً : وصف الأسد

ولع أبو زبيد بوصف الأسد ، وصفاً يدل على رؤيته عن قرب ، رؤيـة حقيقية فقد وصف أعضاءه ، ودقق فى أجزائه ، وصوَّر حركاته وهو يهم بالهجوم ، ويترصد الفريسة . ووصف زمجرته المرعبة ، وبرائنه الخشنة الغليظة ، ومخالبة المعقوفة للرأس .

وكان يستخدم فى أوصافه عبارات مهولة ، ترعب السامع ، وتدخل الرعب والهلع فى نفسه ، حتى كأن السامع يشاهد الأسد من خلال تصويره ، وهذا ما دفع الخليفة عثمان بن عفان " رضى الله عنه " إلى أن يلتفت إليه فى مجلسه ، ويطلب منه أن يسمعه بعض قوله لأنه يجيد وصفه ، وعندما ينهى وصفه يقول له : اسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت قلوب المؤمنين(١) .

ويبدو أنه بلغ فى وصف الأسد حداً ، جعل قومه يلومونه على كثرة هذا الوصف وقالوا : قد خلنا أن تسبنا العرب بوصفك له . فقال لو رأيتم منه رأيت أو لقيتم منه مالقى أكدر ، لما لمتمونى . ثم أمسك عن وصفه ، فلم يصفه حتى مات(٢).

وصف الأسد فى مجلس عثمان بن عفان رضى الله عنه :

وقصته أبى زبيد مع عثمان " رضى الله عنه " فى وصف الأسد مشهورة ، وقد وردت عند ابن سلام (٣) ، وعند ياقوت الحموى (٤) .

---

١ – طبقات فحول الشعراء صـ٥٩٩

٢ – معجم الأدباء جـ١٠ صـ٢٠١

٣ – طبقات فحول الشعراء صـ٥٩٤ – ٥٩٩

٤ – معجم الأدباء جـ١٠ صـ١٩٤ : ١٩٨

ويدل الخبر أن حضر أبو زبيد ذات يوم مجلس عثمان " رضى الله عنه " وكان عثمان يقرّبه ، ويُدنى مجلسه ، برغم نصرانيته . لأنه كان من زوار الملوك وملوك العجم خاصة ، وكان عالماً بسيرهم . وكان عند عثمان " رضى الله عنه جمع من المهاجرين والأنصار . فقال له : يا أخا تيع المسيح ، أسمعنا بعض قولك فقد أنبئت أنك تجيد ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

من مبلغ قومى النائين إذ شحطوا أن الفؤاد إليهم شيق ولع

ووصف فيها الأسد ، فقال له عثمان : تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت ! والله إنى لأحسبك جبانا هدانا ! فقال كلا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت منه منظراً ، وشهدت منه مشهداً لا يبرح ذكره يتجدد فى قلبى ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غير ملوم .

فقال عثمان : وأنّى كان ذلك . قال خرجت فى صُيَّابَةٍ أشرافٍ من أفناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارةٍ حسنة ، تَرْتَمى بنا المَهارَى بأكسائها ، ونحن نريدُ الحارثَ بن أبى شَمِرٍ الغسّانى ملك الشام . فاخرَوَّط بنا المسيرُ فى حَمَارَّةِ القيظ ، حتى إذا عَصَبَتْ الأفواهُ ، ونَبَلَتْ الشفاهُ ، وشالت المياهُ ، وأنكت الجوزاءُ المَعْزاءَ ، وذابَ الصَّيْهَدُ ، وصرَّ الجُنْدَبُ ، وضافَ العصفورُ الضَّبَّ فى جُحْرِه - أو قال فى وِجارِه - قال قائلنا : أيها الرَّكبُ ! غَوِّرُوا بنا فى ضَوْجِ هذا الوادى . وإذا وادٍ قُدَيْدٍ مَتَنا كثيرُ الدَّغَل ، دائمِ الظِّلِ ، شجراؤه مُغِنَّة ، وأطياره مُرِنَّة ، فحططنا رواحلنا فى أُصُول دَوْحَاتٍ كَنَهْبَلاتٍ فأَصَبْنا من فضلاتِ المزاودِ وأتبعناها الماءَ البارِدَ .

فإنا لنصِفُ حرَّ يومنا ذلك ومماطلته ، إذ صَرَّ أقصى الخيل أذنيه ، وفَحَصَ الأرضَ بيديه . فوالله ما لبث أن جال ، ثم حمحم فبال ، وفعل فعله الذى يليه واحداً فواحداً . فتضعضعت الخيل ، وتكعكعت الإبل ، وتقهقرت البغال ، فمن نافر بشِكالِه ، وناهضٍ بعقاله ، فعلمنا أن قد أُتينا وأنه السبع ففرغ كل امرىءٍ منا إلى سيفه فاستله من جُرُبَّاتِه ، ثم وقفنا رَزدَلاً فأقبل يتطالع من بغيه كأنه مجنوبٌ أو فى هِجارٍ ، لصدره نحيطٌ ولبلاعيمه غطيطٌ ، ولطرّفه وميضٌ ، ولأرساغه نقيضٌ ، كأنما يخبط هشيماً ، وإنما يطأ صَرِيماً ، فإذا هامَةَ كالمِجَنِّ ، وإذا خدٌّ كالمِسَنِّ ، وعينان تجْراوان كأنهما سِرَاجَانِ يقدان ، وقَصَرَةٌ رَبِلَةٌ ، ولِهْزِمَةٌ رَهِلَةٌ ، وكَتِدٌ مُغْبَطٌ وزَوْرٌ

مُفْرَطٌ ، وساعدٌ مَجْدُولٌ ، وعَضْدٌ مَفْتُول ، وكَفٌّ شَثْنَةُ البراثِنِ إلى مَخَالِبَ كالمحاجِن .
فضرب بيديه فأرهَجَ ، وكَشَرَ فأفرَجَ عن أنيابٍ كالمعاوِلِ مصقولَةٍ غير مفلولة ، وفمٍ أشدَقَ ، كالغارِ الأخرق .
ثم تمطَّى فأشرَعَ بيديه ، وحَفَزَ وَرِكَيْه برجليه ، حتى صار ظِلُّه مِثْلَيْه . ثم أقعَى فاقشعرّ ، ثم تمثَّل فاكفهرّ ، ثم تجهم فازبأرّ .

فلا والذى بيتُه فى السماء ما اتقيناهُ إلا بأولِ أخٍ لنا من بنى فزارة ، كان ضخمَ الجُزَارَة ، فوقصَهُ ثم نَفَضَه نفضةً ، فقضقضَ متنية ، ثم جعلَ يَلَغُ فى دمه . فنمرتُ أصحابى ، فيعد لأىٍ ما استقدمُوا . فهجهجنا به .
فكرّ مقشعراً بزبرَةٍ كأن بين كتفيه شَيْهَماً حولياً : فأختلج رجلاً أعجرَ ذا حوايا فنفضه نفضةً تزايلت مفاصِلُه ، ثم نَهَمَ ففرفر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ، ثم لحظ ، فو الله لخلتُ البرقَ يتطاير من تحت جفونه من عن شِماله ويمينه . فأُرعِشَت الأيدى ، واصطكت الأرجُل ، وأطَّتِ الأضلاع ، وارتجَّتِ الأسماعُ ، وحمَّجَتِ العيون ، ولحِقَتْ البطون ، وانخزلت المُتُون ، وساءت الظنون .

فقال عثمان : اسكت ، قطع الله لسانك ! فقد رعبت قلوب المؤمنين .
ويتضح من كلام عثمان رضى الله عنه أنه وصف الأسد فى قصيدته وصفاً يدل على شدة الهول الذى يعترى قلب الشاعر حين يتذكر منظر الأسد ، ولذلك قال له عثمان " والله إنى لأحسبك جباناً هداناً ! ". فأخذ أبو زبيد يدافع عن نفسه أمام الخليفة ويذكر له الموقف الذى رأى فيه أسداً وما شاهده بعينيه من أهوال .

ويبدأ أبو زبيد فى تصوير ذلك المشهد الذى يظل ذكره يتجدد فى قلبه فيقول : خرجت فى صيابة أشراف من أفناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارة حسنة ..... ".
فيذكر أبو زبيد أنه خرج فى جماعة من خيار الناس وأخلصهم نسباً ، من مجموعة من القبائل العربية ، من أجمل الناس وأحسنهم ملبساً .
وأسرعت بهم الإبل وتوالت بعضها فى أدبار بعض ، وقذفتهم من بلد إلى بلد ، وكانوا يقصدون الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام ، وقد امتد وطال بهم

المسير فى شدة الحر . ثم يأخذ أبو زبيد فى وصف شدة الحر ، الذى عانوا منه . فيذكر لذلك دلالات ، فالريق يجف من العطش وكأن الأفواه معصوبة والشفاه أيضاً تجف من الحر وكأنها تذبل ، وقد قلت المياه ونشفت وكأنما يزيد نجم الجوزاء من اللهيب المشتعل بالأرض الصحراوية الغليظة ، الكثيرة الحصى . وصارت الحرارة فى أشدها ، واشتد الحر على صغار الجراد ، فصدر منه صوت ممتد . ويضربون المثل للأمر يشتد حتى يقلق صاحبه بقولهم " صر الجندب " عندئذ صاح أحد المرتحلين بالركب أن انزلوا للقيلولة فى منعطف هذا الوادى ، فنزلوا ، وإذا هم بواد يكثر به الشجر الكثيف الملتف المشتبك ، والماء يتغلل الأشجار ، فيسيل ظاهراً على وجه الأرض ظهوراً قليلاً . ويكثر الذباب على الأشجار المتكاثفة ، فيسمع لطيرانه بين العشب والشجر غنه ، وكذلك يسمع صوت للطيور التى تعيش به . فأوقفوا رواحلهم فى هذا الوادى الخصيب، ووضعوا أغراضهم عند جذوع الأشجار العظيمة المتسعة ، وأكلوا ، وشربوا الماء البارد .

وبينما أبو زبيد يصف حرَّ ذلك اليوم وتطاوله كأنه لا يريد أن يزول ، نظر فوجد الخيل تنصب أذنيها للتسمُّع " وهى تفعل ذلك عند المخافة " وتضرب الأرض بقدميها كأنها تحفرها ، وتدور فى مكانها قلقاً ، وتحمحم ، وتبول فزعاً وكأنها ذليلة خاضعة من الخوف .

أما الإبل فأحجمت وتأخرت إلى الوراء ، وكذلك البغال تراجعت للخلف .

وأصاب الفزع الإبل كافة حتى المقيَّد بالشكال أو العقال هبَّ ليعدوا وهو مقيَّد .

عند ذلك أدرك الرَّكبُ أنهم أمام الأسد لا محالة . فأسرع الرجال يستلون سيوفهم من الأغماد ، ثم اصطفوا صفاً واحداً فى مواجهة الأسد . وأقبل عليهم الأسد يتمايل ويختال فى مشيته كأنه يميل على جنبه من شدة الألم . أو كأنه مربوط فى هجار ، وهو الحبل يعقد فى يد البعير ورجله فى أحد الشقين . ويصدر عنه أصوات عاليه ، هى مزيج من الزفير والغطيط ، وعيناه لها وميض .

وفى سيره يُسمع صوت مفاصله إذ يثقلها حمله ، كأنما يطأ شجراً يابساً وإنما هو يطأ رملاً .

ويصف هيئة الأسد : " فإذا هامة كالمجن وإذا خد كالمسن ..... " .
إذ يصف رأسه الضخم بأنه كالمجن وهو الترس العريض ، وخده أملس كالمسن وهو الحجر الذى يسن عليه السيف والسكين .

والعينان يتلألآن وقد شابتهما حمرة يسيرة ، والعنق ضخم كثير اللحم وهو ذو لهزمة " وهى مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن من اللحى عند أصول الحنكين " سميئة مسترخية ، وممتلىء الكتفين ، وكذلك صدره ممتلىء باللحم . ويصف أطرافه فالساعد مجدول ، والعضد مفتول ، والكف ذو براثن(١) خشنة غليظة ، وفيها مخالب معقوفة الرأس .

ثم يصف حركات الأسد ، فيقول ، فضرب الأرض بيديه فأثار الغبار ، وكشر عن أنيابه ، فظهرت أنيابه المصقولة ، وفمه المتسع كأنه الغار واسع الخرق . ثم تهيأ للوثوب ، فرفع يديه ، ودفع وركيه برجليه ، حتى استطالت هيئته وشبه ذلك بأن صار ظله مثليه .

ثم جلس على استه مفترشاً رجليه وناصباً يديه ، وتجمع مستعداً للوثوب ، وتمايل وعبس وجهه ، ثم تهيأ للشر وانتفش شعره .

وانقضى الأسد على أول الركب . وكان رجلاً من بنى فزارة ، غليظاً ، فدق الأسد عنقه فكسره . وسمع صوت كسر عظامه . وأخذ الأسد يلغ دمه بلسانه .

ويروى أبوزبيد أنه أخذ بحض أصحابه ، ويحثهم أن يتجرأوا ويتقدموا وبعد جهد ومشقة وإبطاء منهم ، تشجعوا وأخذوا يصيحون بالأسد ويزجرونه ليبتعد عنهم، ولكنه كرّ عليهم نافشاً شعره ، ويشبهه فى هذه الحركة بذكر الفتقة الحولى العظيم الشوك ، فانتزع من بينهم رجلاً ضخم البطن عظيمها (رجلاً أعجر ذا حوايا) وكاد الرجل لهول مالاقاه أن تنفرق مفاصله . ثم زأر بغيظ وتوعد ، وتنفس تنفساً شديداً ، وردد الصوت فى حنجرته ، ونظر بمؤخر عينه ويذكر أبو زبيد إحساسه فى هذه اللحظات يقول: "فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه ، من عن شماله ويمينه".

---

١ – البراثن للأسد كالأصابع للإنسان .

ويذكر رد فعل الجمع المرتحلين ، فيصف رعشة الأيدى ، وضرب الركبة الركبة ، اضطراب الضلوع حتى يُسمع صوتها من الخوف ، واختلاط الأصوات. وقد انفتحت العيون وحَدَّقت ذعراً وضمرت البطون من الخوف ، حتى لحق البطن بالظهر ، وصار الرجال لا يستطيعون أن يقيموا صلبهم . وصار الناس يتمنون فى أنفسهم الهرب ، والفرار ، وترك الدفاع عن انفسهم . عندئذ صاح به الخليفة عثمان: أن اسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت قلوب المؤمنين .

وصف الأسد فى شعر أبى زبيد :

وصف أبو زبيد الأسد شعراً فى سبع قصائد ، وهو دائماً فى وصفه للأسد يصف الرعب والهلع ، الذى ينتاب القوم حين يفاجأون برؤيته . ومرد ذلك أنه لقيه ذات يوم بالنجف ، وشاهد منه مشاهد لم تبرح خياله . وقد لامه عثمان بن عفان (رضى الله عنه) على كثرة وصفه للأسد ، وصفاً يبعث الرعب فى قلوب المؤمنين . وتدل الأخبار (١) أنه حينما قال قصيدته فى كلبه أكدر حين لقيه أسد فافترسه ، أن لامه قومه على كثرة وصفه للأسد ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا العرب بوصفك له. قال لو رأيتم منه ما رأيت ، أو لقيكم مالقى أكدر لما لمتمونى . ثم أمسك عن وصفه فلم يصفه بعد ذلك فى شعره حتى مات ".

وهو فى وصفه الأسد <u>يصف جسده وهيئته وصوته</u> :

فيصف شعره الكثيف المجتمع على كاهله ، وقد نفشه وقت هجومه على الفريسة ، فصار مجموعات كثيفة متقطعة ، يقول :

له زُبَـرٌ كاللبد طارتْ رعابلاً ... وكتفـان كالشرخين عَبلَ مُضَبَّر (٢)

ويشبه شعره الكثيف على عنقه وكاهله ، فى بيت آخر بالهودج المغطى بالقطيفة ، المصنوعة من ألبار الإبل . يقول :

وردٌ كأن على أكتـاده حَرَجـاً ... فى قُرطف من نسيل النجت مخدُور (٣)

---

١ - الأغانى جـ ١٢ صـ ١٢٥ ، معجم الأدباء جـ١ صـ ٢٠١

٢ - ديوان أبى زبيد صـ ٦٠٧

٣ - المرجع السابق صـ ٦٢٣

وتارة ثالثة يصف شعره الكثير المتداخل ، الذى يغطى جسده ، وكأنه قد التحف ببرنس يغطى جسده بأكمله . يقول :

ضرغامة أهرت الشدقين ذى لبدٍ كأنّه بُرْنُسا فى الغاب ملتفعُ (١)

وفى البيت التالى يصف جلد الأسد ، وشعره المتدلى ، ويشبهه بالقطيفة ، التى يرتديها الراعى . يقول :

كأن أثوابَ نَقّاد قُدِرْنَ له يَعْلُو بخَمْلتها كهبَاء هُدَّابا (٢)

ويصف قوائمه المرتفعة ، ويشبهها بعيدان الرجل القوية المرتفعة ، يقول :

أوذا شصائب فى أحنائه شمم رخو الملاط غبيطا فوق صرصور (٣)

وأما رأسه فقوى كالصخرة ، والعينان متوهجتان كالجمرتين :

وعينان كالوقبين فى قُبْلِ صخرةٍ يُرى فيهما كالجمرتين التبصُّرُ (٤)

ويشبه رأسه مرة أخرى بالحجر، والعينان كأنهما حفرتان حفرتا بفأس حديدية: يقول:

كأن عينيه فى وقبين من حجر قيضا اقتياضاً بأطراف المناقير (٥)

وعيناه تتوهجان فى الظلام ، كأنهما الجمر :

براثنه شثن وعيناه فى الدجى كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر(٦)

ويصف نظرته من جانب الأذن :

رحيب مشقّ الشّدق أغضفُ ضيغمٌ له لحظاتٌ مشرفات ومحجر(٧)

وهو فى البيت السابق يصف أيضاً اتساع شدقه ، بقوله : " رحيب مشق الشدق " .

وفى بيت آخر يصف اتساع شدقه :

ضرغامةٌ أهرت الشدقين ذى لبد كأنه بُرْنُسا فى الغاب ملتفعُ (٨)

وأما أصول الحنكين ، فهى قوية شديدة ، يقول :

---

١ - المرجع السابق صـ٦٤٣

٢ - المرجع نفسه صـ٥٩٠

٣ - صـ٦٢٣

٤ - صـ٦٠٨

٥ - صـ٦٢٣

٦ - صـ٦١٣

٧ - صـ٦٠٧

٨ - صـ٦٤٣

منيع ويحمـــى كـــل واد يرومُـــهُ شـــديد أصول الماضغين مكابر (١)

ورأسه طويل ، ولذلك فقد قصر عنه عذاره ، يقول :

خان العذارُ بما فى الرأس من طول وتَـــيَّرَ الجل عنـه أىّ تســـيير (٢)

وأما الأنياب فهى حاده ، إذا قلص شدقيه عنها بدت كأنها الخناجر ، يقول :

يُـدِلُّ بأنيـــابٍ حـــدادٍ كأنـــها إذا قَلَّص الأشـــداقَ عنها خَنَاجِرُ (٣)

ويصفها فى بيت آخر بأنها مائلة :

فلا يعلقنكم مهصَرُ النـابِ عنبَـسٌ عَبُـوسٌ له خَلْق غليظ غضنفرُ (٤)

ويشير إلى متانة وقوة الكتفين ، مع امتلائهما باللحم . يقول :

لـــه زُبَـرٌ كاللبد طـــارتْ رعابـلاً وكتفـــان كالشرخين عبلُ مُضَبَّر (٥)

ومن طبيعة خلقة الأسد أن خطوات ساعديه متقاربة وسريعة ، ويذكر هذه الصفة أبو زبيد فى شعره ، يقول :

إلى مُقـــارِبِ خطوِ الســـاعدين لـــه فوقَ السراةِ كِذفّرى القارحِ الغضِن(٦)

وفى البيت التالى يشبهه وهو يمشى مقارباً خطوه، كأن ساعديه كسرتا ثم جبرتا. يقول:

إذا تبهنـــس يمشـــى خلقه وعثـــا وعـــى الســـواعد منه بعد تكسير (٧)

ويضيف إلى هذه الصفة فى مشيته صفة أخرى ، وهى ميل الأرساغ ، " والرسغ : مفصل ما بين الساعد والكف" ، يقول :

مقابل الخطـوِ فى أرســـاغِهِ فَـــدَعٌ وَرداً يَدُفّـــق أوســـاط العياهيـــر (٨)

ويقول : كأنما يتفادى أهل بعضـــهم مـــن ذى زوائد فى أرساغه فَدَعُ (٩)

وطما براثنه فهى خشنة ، يقول :

---

١ – صـ٦١٣

٢ – صـ٦٢٤

٣ – صـ٦١٣

٤ – صـ٦٠٦

٥ – صـ٦٠٧

٦ – صـ٦٦٧

٧ – صـ٦٢٣

٨ – صـ٦٢٤

٩ – صـ٦٤٣

براثنه شثنٌ وعيناه فى الدجى كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر(١)

ولون البراثن يميل إلى السمره . يقول :

بسمر كالمخالق فى فُتوخٍ يقيهَا قَضَّةَ الأرضِ الدخيسُ (٢)

وكما يصف أجزاءه يصف هيئته ، فلونه أحمر يضرب إلى صفره ، إذ يصفه بأنه " ورد " ، وهذه الصفة تدل على لونه ، يقول :

ورد كأن على أكتاده حَرَجًا فى قرطف من نسيل النجت مخدور(٣)

وأما زئيره فهو عال ، تكاد تتأثر به الجبال الراسيات ، يقول :

من الأسد عادى ، يكاد لصوته رؤوس الجبال الراسيات تقعَّرُ(٤)

ويشبه الزئير فى هذا البيت بالرعد :

كأن اهتزامَ الرعد خالطَ جوفَهُ إذا حنَّ فيه الخيزرانُ المثَّجَّرُ (٥)

ويصف زئير الأسد وصفاً دقيقاً ، فهو صوت فيه حشرجة ، كأنما هو صوت صادر من أحشاء إنسان يشتكى صوره ، يقول :

للصدر منه عويل فيه حشرجةٌ كأنما هى فى أحشاء مصدورِ (٦)

وأما هيئة مشيته واختياله ، فتأتى موقفه لدى الشاعر ، إذا يصفه بأنه يمشى يتبختر:

إذا تبهنس يمشى خلته وعثا وعى السواعد منه بعد تكسير (٧)

ويقول :

مبهنساً حيث يمشى ليس ينزعه مشمراً للدواهى أىّ تشمير (٨)

---

١ - صـ٦١٣

٢ - صـ٦٣٢، السمر: المخالب ، والمحالق: المواسى شبهها فى حدتها . فى فتوخ : فى استرخاء وانثناء. القضة : الحصى الصغير ، الدخيس : اللحم الذى فى كفيه . قال الجاحظ فى الحيوان : ٢٨٤/٤ " ومخالب الأسد وأشباه الأسد من السباع ، تكون فى غلف " الغطاء الذى يدخل فيه مخالبه فى يده ليسترها إذا وطئت على بطون أكفها ترفعت المخالب ، ودخلت فى أكمام لها ". وهو قول أبى زبيد وأنشد البيت .

٣ - صـ٦٢٣

٤ - صـ٦٠٨

٥ - صـ٦٠٨

٦ - صـ٦٢٥

٧ - صـ٦٢٣ تبهنس : تبختر

٨ - صـ٦٢٤

وأما هيئته ومنظره : فهو عبوس ، وعضنفر (١) ، يقول :

فلا يعلقنكم مِهْصَرُ الناب عَنْبَسٌ عَبُوسٌ له خَلْق غليظٌ عَضَنْفَرُ (٢)

وفى هذا البيت يصفه بأنه عبوس ، شموس (٣) ، مصلخد . يقول :

عبوس شموس مصلخد مكابر جرىء على الأقران للقرن قاهر (٤)

وهو ضرغامة (٥) ، يقول :

ضرغامة أهرت الشدقين ذى لبدٍ كأنه بُرْنُسا فى الغاب ملتفعُ (٦)

ومن ينظر إليه ، يجد الشر بادياً على وجهه :

براثنه شثنٌ وعيناه فى الدجى كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر (٧)

وصف العرين واللبؤة والأشبال :

ويصف عرين الأسد فهو يمتلىء بشجر العناب المتداخل الكثيف ، وقريب منه موضع الماء ، يقول :

ابنَ عِريسةً عُنابُها أشِبٌ ودونَ غايتها مُسْتَوردٌ شَرَعُ (٨)

والعرين مفروش بنباتات جافة هشة ، وكأنه مأوى لرجل أرمل عجوز ، يقول :

فأسريا وهما سنا هومها إلى عرين كعشِّ الأرمل اليفن (٩)

ويصف اللبؤة بأنها عضوض ، متوسطة العمر ، وقد قاربت أن تضع ، فأشرق ضرعها . يقول :

---

١ - عبوس : جلد ما بين عينيه وجلد جبهته وتجهم وهى صفة للأسد ، غضنفر : غليظ الخلقة .

٢ - صـ٦٠٦

٣ - الشموس : صعب الخلق ، مصلخد : منتصب قائماً .

٤ - صـ٦١٢

٥ - الضرغامة : هو الأسد الشديد الضارى .

٦ - ديوان أبى زبيد صـ٦٤٣

٧ - المرجع السابق صـ٦١٣

٨ - أبن : أقام ، عريسة : مأوى الأسد . عنابها أشب : شجر العناب متداخل ، مستورد موضع الورود الديوان صـ٦٤٤

٩ - صـ٦٦٧

بثنـــى القـريتيـن لـــه عيـــالٌ بنـوه ومُلمِـعٌ نَصَـفُ ضَـرُوسَ (١)

والأسد ليست له شيعة سوى لبؤته وأشباله ، يقول :

بالثنى أسـفل مـن جماء ليـس له إلا بنيتـه وإلا عرســـه شـــبع (٢)

ويصف لبؤة لها ستة من الأشبال ، وعظام صدرها بارزة ، وشعر جسدها قصير ، يقول :

حتـــى إذا ورد الغزوال وانتبهت لحســـه أم أجـــر ســـتة شـــزن

بـــادٍ جناجِنُهـا حصّـــاء قد أفلت لهـن يبهرن تعبيراً على سـدن (٣)

وفى قصيدة أخرى يصف شبلين بقبح المنظر ، وأمهما لبؤة قليلة الشعر ، وهى حامل وقد ظللت ترضعهما ، حتى إذا ذهب لبنها من الوحم ، صدت عنهما ثم أشبعها الأسد طعاماً ، ولكنها ظللت فى فطام الشبلين ، ويصف لونهما فهو أحمر مائل إلى الصفرة " وهو لون الأسد " وقد عوضهما أبوهما الأسد عن لبن الأم ، بأن قدم لهم فرائسه من القوم . يقول :

أبـو شـتيمين مـن حَصّـاء قـد أفلَـت كـأن أطباءَهـا فـى رُفْغِهـا رُقَـعُ

أعطتهمـا جُهدهـا حتـى إذا وَحِمَـتْ صَـدَّت وصَـدَّ فلاغَيـل ولا جَـدَعُ

ثـم اسـتفاها فلـم تقطـع فطامهمـا عـن التَصَبُّـبِ لا شَـعْبٌ ولا قَـدَعُ

ورَدَيْـن قـد أخـذا أخـلاق شـحمهما ففيهمـا عزمـة الظلمـاء والجَشَـعُ

غذاهمـا بلحـام القـوم مُذّ شـــدنا فما يزال بوَصَلىّ راكـب يَضَعُ (٤)

وتارة أخرى يصف طعام الأشبال ، فهو الفريسة التى افترسها الأسد ، وعفرها فى التراب ، فتهلهلت ملابسها . يقول :

غُذيـــن بكـــل منعفـــر ســـليب يجـــاء بـــه وقد نَسل الدريصُ (٥)

---

١ – صـ٦٣٠

٢ – صـ٦٤٤

٣ – صـ٦٦٧ جناجنها : عظام الصدر ، حصاء : قليلة الشعر.

٤ – الديوان صـ٦٤٥ أبو شتيمين : قبيحٌ المنظر ، حصاء : سقط شعرها ، أفلت : حملت ، غيل : أن ترضع المرأة أولادها وهى حامل ، جدع : سوء غذاء ، استفى : شدة الأكل بعد قلته ، التصبُّب : اكتساء اللحم للسمن بعد الفطام ، يضع : يعدو

٥ – صـ٦٣٠ ، نسل : سقط ، الدريص : خلقان الثياب .

موازنة بين وصف الأسد عند أبى زبيد ، ووصفه عند غيره من الشعراء :

تطالعنا صورة الأسد عند بعض الشعراء - غير أبى زبيد - ونذكر فى مقدمتهم المتنبى فى قصيدته الشهيرة فى مدح بدر بن عمار ، وكذلك عند البحترى فى قصيدته فى مدح الفتح بن خاقان . وقد أورد صاحب الأمالى مجلساً فى وصف الأسد، إذ تبارى عند يزيد بن معاوية: أبو زبيد ، وجميل بن معمر العذرى ، والأخطل التغلبى فى وصف الأسد ، وأورد صاحب الأمالى لكل واحد من الثلاثة مقطعة فى وصف الأسد(١). وكذلك ورد وصفٌ للأسد فى جزء من قصيدة لعروة بن الورد.

فأما المتنبى :

فقد وصف الأسد فى قصيدته التى مدح بها بدر بن عمار لما خرج إلى أسد ، وقد أعجله عن سل سيفه ، فضربه بالسيف فمرغه فى التراب . ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته (٢) :

أَمُعَفِّرَ اللَّيثِ الهِزَبْرِ بِسَوطِهِ ... لَمَن ادخرتَ الصارِمَ المصقُولا

وقعتْ على الأُردنِّ منه بليَّةٌ ... نُضِدَتْ بها هامُ الرِّفاقِ تُلولا

وَرَدَ إذا وَرَدَ البُحيرةَ شَارِباً ... وَرَدَ الفُراتَ زئيرُهُ والنيلا

مُتَخَضِّبٌ بدمِ الفوارسِ لابِسٌ ... فى غِيلِهِ من لِبْدَتَيْهِ غِيلا

ماقُوبِلَتْ عيناهُ إلا ظُنَّتَا ... تحت الثُّجَى نارَ الفريقِ حُلولا

فى وَحدَةِ الرُّهبانِ إلا أنه ... لا يعرِفُ التحريمَ والتحليلا

يطأُ الثَّرَى مترفِّقاً من تيهِهِ ... فكأنه آسٍ يَجُسُّ عَلِيلا

ويَرُدُّ عُقْرَتَهُ إلى يافُوخِهِ ... حتَّى تَصِيرَ لرأسِهِ إكليلاً

وتَظُنُّهُ مما يُزمجِرُ نفسُهُ ... عنها لشدةِ غيظِهِ مَشْغُولا

قَصَرَتْ مخافَتُهُ الخُطَى فكأنما ... رَكِبَ الكَمِيُّ جوادَهُ مَشْكُولا

---

١ - نيل الأمانى والتوادر لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى صـ١٨٣ : ١٨٥

٢ - شرح ديوان المتنبى ، وضعه عبد الرحمن البرقوقى جـ٣ صـ٣٥٤ : ٣٥٧

ألقى فريسته وبرير دونها ... وقربت قرباً خاله تطفيلا
فتشابه الخلقان في إقدامه ... وتخالفا في بذله المأكولا
لسد يرى عضويه فيك كليهما ... متناً أزل وساعداً مفتولا

ويختلف وصف أبي زبيد للأسد في قصيدته ، عن وصف المتنبي له . فأبو زبيد في معظم قصيدته التي وردت في وصف الأسد ، يبدأ بذكر جماعة من قومه يسيرون بالليل ثم أناخوا مطيهم ليستريحوا . وكان الأسد يرقبهم ، وفلجأهم ، فتفرقت المطايا ، ولاذت بالفرار ، وفزعت الجماعة ، وافترس الأسد رجلاً أو اثنين منهم ، ولاذ الباقون بالفرار . ثم يصف الأسد وهو يلتهم فريسته ، ويصف الصريع وقد تلطخ بالدم ، وتعفرت جثته بالتراب ، وأخيراً يصف الأسد في مشيته وتيهه ، بعد افتراس الفريسة وهو يجول متبختراً حول فريسته سعيداً بصنيعه . أما المتنبي في قصيدته التي وصف فيها أسداً فقد كان يدلل على شجاعة الممدوح الذي لم يجبن أمام الأسد ولم يرتع ، ولم يتملكه الهول . بل لقد أعجله الأسد عن سل سيفه ، فضربه الممدوح بالسوط فمرغه في التراب .

ويتعجب المتنبي من شجاعة ممدوحه الذي تمكن من قتل الأسد بسوطه ، ومرغه في التراب دون أن يستل سيفه ، وهذا يدل على شجاعته . ثم يستطرد في وصف الأسد ، ويتفنن في ذلك ، ويذكر تشابه الممدوح والأسد في الجرأة والإقدام والقوة الجسدية . ثم يذكر بخل الأسد وكرم الممدوح . وقد خذلت الأسد قوته أمام قوة وشجاعة الممدوح ، فانهزم وطرحه الممدوح أرضاً قتيلاً .

وقد أعجب صاحب المثل السائر (١) بوصف المتنبي للأسد وحكّم بين هذا الجزء من قصيدته ، وقصيدة البحتري في وصف الأسد ، وفضل قصيدة المتنبي ، يقول " وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذي يشهد به الحق وتنفيه العصبية أنكره، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عدداً ، وأسد مقصداً ، ألا ترى أن البحتري قد قصر

---

١ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير صـ٢٨٧

مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة ، وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه . لمن ادخرت الصارم المصقولا؟

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه ، وفى هيئته مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته وشبه الممدوح به فى الشجاعة ، وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج ، وأبرزه فى أشرف معنى .

وقد تشابه وصف المتنبى ووصف أبى زبيد من عدة وجوه ، كما اختلفا فى وجوه أخرى وسنذكر ذلك إن شاءالله .

فأما وصف صورته وهيئته : فنلاحظ اتفاقهما فى وصف لونه بدقة ، وهو لون الحُمرة المائل إلى الصُفرة ، وذلك من خلال كلمة " ورد " . يقول المتنبى :

وردٌ إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

ويقول أبو زبيد :

وردٌ كأن على أكتاده حرجا فى قرطف من نسيل النجت مخدور(١)

وكذلك وصفهما للشعر المجتمع على كتفيه ، يقول المتنبى :

متخضب بدم الفوارس لابس فى غيله من لبدتيه غيلا

فيصف الشعر المجتمع على كتفيه ويشبهه لغزارته بالشجر الكثيف ، وهذا المعنى ورد عند أبى زبيد فى بيته السابق ، إذ يشبه الشعر الكثيف المجتمع على رأسه وكاهله بالهودج المغطى بالقطيفة المصنوعة من أدبار الإبل .

وينفرد المتنبى بوصف حركة الشعر الكثيف على رأسه وقفاه ، إذ يتحرك ناحية الرأس ، فيصير كأنه تاجاً على رأس الأسد ، يقول :

---

١ - ديوان أبى زبيد صـ٦٢٣

ويرد عفـــرته على يافوخـــه حتـــى تصيـر لرأســـه إكليـــلا

كما ينفرد أبو زبيد بوصف شعر رأسه وقت هجومه على الفريسه ، يقول :

له زُبَـرٌ كاللبد طـارت رعابـلاً وكتفـان كالشـرخين عبلَ مُضَبَّر(١)

فهو ينفش شعره وقت الهجوم فيصير مجموعات كثيفة متقطعة .

وأما وصفهما للون براثن الأسد ، فيقول المتنبى : " متخضب بـدم الفـوارس " ، فيصف لون البراثن القالم ، وكأن الأسد قد تخضب بدماء من افترسهم من الفرسان .

وأما أبو زبيد فيقول :

بســـمر كالمحالق فى فتـــوخ يقيهـا قضـة : الأرض الدخيس (٢)

فيضيف إلى لون البراثن الأسمر (وهو لون ناشىء مـن تراكم الدمـاء ومـرور الوقت عليها) ، صفة الحدة ، فهى قوية وحادة .

وأما وصف العينين ، فقد أورد المتنبى :

مـا قوبلت عينـــاه إلا ظننتـا تحـت الدجـى نـار الفريـق حلولا

فيصف منظر عينى الأسد ، ويصف لمعانهما وحدتهما ويشبه منظرهمـا بالنـار التى توقدها الجماعة النازلة بالليل .

وتشبيه عينى الأسد بالنار ورد عند أبى زبيد فى أكثر من بيت . يقول :

وعينان كالوَقبين فى قُبْلِ صخرةٍ يُـرى فيهمـا كالجمرتين التبصُّرُ (٣)

وأيضاً يصف توهجهما فى الظلام كأنهما قطعتان من الجمر . يقول :

براثنه شثن وعيناه فى الدجـى كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر(٤)

ويصف المتنبى انفراده فى جنسه ، يقول :

فـى وحـدة الرُّهبـان إلا أنـه لا يعـــرفُ التحـريمَ والتحليـــلا

وقد وفق المتنبى فى وصف حياته منفرداً إذ شبهه بالراهب ثم ذكر الفرق بين الأسد والراهب . إذ الأسد لا يعرف الحرام والحلال .

بينما يذكر أبو زبيد أن ليس للأسد شيعة سوى لبؤته وأشباله يقول :

---

١ - المرجع السابق صـ٦٠٧

٢ - صـ٦٠٧

٣ - صـ٦٠٨

٤ - صـ٦١٣

بالثنى أسفلَ من جَمّاءِ ليس له إلا بنيه وإلا عِرْسَه شِيَعُ (١)

وأما وصف زئير الأسد ، فيقول المتنبى :

ورد إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا

فيصف شدة إرتفاع الصوت ، حتى إنه ليصل من بحيرة طبرية إلى الفرات والنيل .

وأما أبو زبيد فقد وصف صوت زئير الأسد وصفاً دقيقاً ، إذ وصف شدة الصوت وارتفاعه حتى إنه ليصل إلى أعلى الجبال الراسيات ، التى تكاد تنقلب مخافة هذا الصوت ، يقول :

من الأُسْدِ عادىً ، يكاد لصوته رؤوس الجبال الراسيات تقعَّر(٢)

ويشبه غلظة صوت الزئير بصوت الرعد المدوى ، يقول :

كأن اهتزام الرعد خالط جوفه إذا حن فيه الخيزرانُ المثجرُ(٣)

وفى البيت التالى نرى إجادة أبى زبيد ودقته فى وصف صوت الزئير وما فيه من حشرجة وخشونة كأنما هو صوت صادر من إنسان مريض بصدره . يقول :

للصدرِ منه عويل فيه حشرجةٌ كأنما هى فى أحشاء مصدورِ(٤)

وأما هيئة مشيه واختياله : يقول المتنبى :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسى يجس عليلا

إذ يصور المتنبى رقته المتناهية فى خطوه على الأرض ، لشدة تعاجبه بنفسه واختياله ، بحركة الطبيب وهو يجس المريض بيده برقة وعطف . وقد نجح المتنبى فى تصوير هذا المعنى بدقة .

بينما أبو زبيد يصف مشيته يتبختر ، يقول :

إذا تبهنس يمشى خلته وعثاً وعى السواعد منه بعد تكسير(٥)

فجعل هيئته فى مشيه يتعاجب ويتبختر ، ورقته فى وقع خطواته على الأرض، كأنما قد كسر ساعداه ثم جبرا بعد ذلك . ولذلك فهو يترفق فى خطواته .

---

١ - صـ٦٤٤

٢ - صـ٦٠٨

٣ - صـ٦٠٨ المثجر : الغليظ العريض

٤ - صـ٦٢٥

٥ - صـ٦٢٣ تبهنس : مشى يتبختر ، وعثاً : يمشى فى وعث وهو ما كثر فيه الرمال .

وكلا الشاعرين قد وُفق فى أداء هذا المعنى .

وأما البحترى : فله قصيدة فى مدح الفتح بن خاقان ، وذكر منازلته الأسد .

مطلعها :

أجِـدَّكَ ما يَنْفَكُّ يَسْـرِى لـ " زينبا " خيـالٌ إذا آبَ الظـلامُ تـأوَّبـا(١)

وورد بالقصيدة فى ذكر الأسد قوله :

غَـداةَ لَقِيـتَ اللَّيْـثَ واللَيـثُ مُخْـدِرٌ يُحـدِّدُ نَابـاً للقـاءِ ومِخْلَبـاً

يُحَضِّنُـهُ مـن نهـرِ تَـيْزَكَ مَعقِـلٌ مَنِيـعٌ تَسَـامَى غابُـهُ وتأشَّـبا

يَـرُودُ مَغَـاراً بـالظواهِرِ مُكْثِبـاً ويَحتَـلُّ رَوْضـاً بالأباطِحِ مُعْشِـباً

يُلاعِـبُ فيـه أقْحُوانـاً مُفَضَّضـاً يَبِـصُّ ، وحَوْذَانـاً علـى المـاءِ مُذْهَبـاً

إذا شـاءَ غَـادَى عانـةً ، أو عـداً علـى عَقـائِلِ سِـرْبٍ ، أو تَقَمَّـصَ ربربـا

يَجُـرُّ إلـى أشـبالِه كـلَّ شـارِقٍ عَبيطـاً مُدَمَّـى أو رَمِيـلاً مُخَضَّبـاً

ومن يبْغِ ظُلْمـاً فـى حَريمـك يَنْصَـرِفْ إلـى تَلَـفٍ أو يُثْـنَ خزْيَـانَ أخْيَبـا

شَـهِدتُ لقـد أنصَفْتَـهُ يـومَ تَنْـبَرِى لـه مُصْلِتـاً عَضْبـاً مـن البيـضِ مِقْضَبـاً

فلـم أرَ ضِرْغَـامَيْنِ أصْـدَقَ مِنكمـا عِرَاكـاً إذا الهَيَّابـةُ النِّكْـسُ كَذَّبـا !

هِزبْـرٌ مَشَـى يبغِـى هِزَبْـراً ، وأغلَـبٌ من القوم يَغْشَى - باسِلَ الوَجْـهِ - أغلَبا

أدَلَّ بشَـغْبٍ ثـم هالَتْـهُ صَوْلَـةٌ رآك لهـا أمْضَـى جَنَانـاً وأشـغَبا

فـأحْجَمَ لمَّـا لـم يَجِـدْ فيـك مَطْمَعـاً ، وأقْـدَمَ لمَّـا لـم يَجِـدْ عنـك مَهْرَبـا

فلـم يُغْنِـهِ أن كَـرَّ نحـوَكَ مُقْبِـلاً ، ولـم يُنْجِـهِ أنْ حـادَ عنـك مُنَكِّبـاً

حَمَلْتَ عليه السـيفَ ، لاعَزْمُك انْثَنَـى ولا يَـدُك ارتَـدَّتْ ، ولا حَـدُّهُ نَبَـا

والبحترى يبدأ هـذا الجزء من القصيدة بوصف حياة الأسد ، وينكر أنيابه ومخالبه الحادة ذكراً سريعاً يقول :

غـداة لقيتَ اللَّيثَ واللَيثُ مُخْـدِرٌ يُحـدِّدُ نابـاً للقـاءِ ومِخْلَبـا

وإذا قارنا هذا الوصف ، بوصف أبى زبيد للأنياب والبراثن ، لتفوق أبو زبيد إذ يصف الناب الحاد المائل للأسد ، يقول :

---

١ - ديوان البحترى رقم ٦٤ صـ١٩٦

فـلا يعلقنكم مِقْصَرُ النابِ عَنْبَسٌ عبـوسٌ لـه خَلْقٌ غليظٌ غَضَنْفَـرُ(١)

ويشبه الأنياب بالخناجر يقول :

يُـدِلُّ بأنيابٍ حِـدادٍ كأنهـا إذا قَلَّص الأشداقَ عنها خناجِـرُ(٢)

ولما البراثن فيصفها بالخشونة ، يقول :

براثنه شُثْنٌ وعيناه فى الدجـى كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهرُ(٣)

كما يصفها بالسمرة والحدة فى قوله :

يسـمر كالمحـالق فـى فتـوخٍ يقربهـا قَضَّـةَ الأرضِ النخيـسُ(٤)

ثم يصف البحترى عرين الأسد ، فهو قريب من النهر ، وبه أشجار كثيرة ملتفة . يقول :

يُحصِّنُـهُ من نهـرِ تِيْزَكَ معقـلٌ منيـعٌ تسـامى غـابُهُ وتـأشَّـبا

وله كهف يتردد عليه فى أعلى الوادى ، رماله ناعمة وتنبت فيه الأزهار ، يقول :

يـرود مغـاراً بالظواهر مكثبـا ويحتـل روضـاً بالأباطـح معشبا

يُلاعـب فيـه أقحـواناً مُفَضَّضـاً يبـصُّ ، وحوذاناً على الماء مذهبـا

وكذلك وصف أبى زبيد للعرين ، فهو عنده يمتلىء بشجر العناب المتداخل الكثيف ، وقريب منه موضع الماء ، يقول :

أُبِـنَّ عريسـةً عُنَابُهـا أشـبُ ودون غايتهـا مُسـتورَدٌ شَرَعُ (٥)

ويصف أبو زبيد العرين فهو مفروش بنباتات جافة هشة ، وكأنه مأوى لرجل أرمل عجوز ، يقول :

فأسـرَتْ وهـا استنَّا بهومهمـا إلـى عـرين كمُشِّ الأرمل اليفنِ (٦)

ويصف البحترى غذاء الأسد وأشباله ، فهو فرائسه من الحمر ، أو البقر الوحشى وهو كل صباح يقدم لأشباله ذبيحة ملطخة بالدم . يقول :

---

١ - ديوان أبى زبيد الطائى صـ٦٠٦

٢ - المرجع السابق صـ٦١٣

٣ - المرجع نفسه صـ٦١٣

٤ - صـ٦٣٢

٥ - صـ٦٤٤

٦ - صـ٦٦٧

إذا شاء غادى عانةً ، أو عدا على عَقائلِ سِرْبٍ ، أو تنقَّصَ رَبْرَبَا
يجُرُّ إلى أشْبالِهِ كلَّ شارِقٍ عَبيطاً مُدَمًّى أو رميلاً مُخَضَّباً (١)

أما أبو زبيد ، فهو يذكر أن الأسد يطعم أشباله حين يشبون ويبلغون الفطام فرائسه من القوم ، يقول :

غذاهما بلحام القوم مُذْ شَدَنا فما يزال بوصلى راكب يَضَعُ (٢)

وتارة أخرى يصف هذه الفريسة البشرية ، وقد تعفرت فى التراب وتهلهلت ملابسها، يقول : غُذين بكل منعفر سليب يُجاء به وقد نسل الدريسُ (٣)

وصف الأسد فى مجلس يزيد :

أورد صاحب الأمالى(٤) خبراً عن مجلس ليزيد بن معاوية اجتمع عنده أبو زبيد الطائى ، وجميل بن معمر العذرى ، والأخطل التغلبى ، وطلب منهم يزيد أن يصفوا الأسد . فتبارى الشعراء الثلاثة فى وصفه ، وتقدمهم أبو زبيد يصف الأسد أولاً، قال:

خُبَعْثِنَ أشْوَسُ ذوتَهَكُّم مُشْتَبِكُ الأنياب ذو تَبَرْطُم
وذو أهاويلَ وذو تَجَهُّم ساطٍ على اللَّيْثِ الهِزَبْرِ الضَّيْغَمِ
وعَيْنُه مثل الشِّهاب المُضْرَم وهامُهُ كالحَجَر المُلَمْلَم

وقال جميل :

لَيْثُ عَرِينٍ ضَيْغَمٌ غَضَنْفَرُ مُداخَلٌ فى خَلْقِهِ مُضَبَّر
يُخاف من أنيابه ويُذْعَر ما أن يزال قائماً يُزَمْجِر
لَهُ على كل السِّباع مَفْخَر قُضاقِضٌ شَثْنُ البَنانِ قَسْوَرُ

وقال الأخطل :

قُضاقِضٌ جَهْمٌ شديد المَفْصِل مُضَبَّرُ الساعد نو تَعْثُكُل
شَرَنْبَثُ الكَفَّين حامى أشْبُل إذا لَقَاه بَطَلٌ لم يَنْكَل
مُلَمْلَمُ الهامةِ كمشى الأرْجُل نُو لبَد يَغْتَال فى تَمَهُّل

---

١ - عانة : قطيع من بقر الوحش ، عبيطاً : ذبيحة ، رميلاً : ملطخ بالدم .

٢ - صـ ٦٤٥

٣ - صـ ٦٣٠

٤ - ذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى للبغدادى صـ ١٨٣ : ١٨٥

أَنْيابُه فى فيـــه مثـلُ الأَنْصُـــل وعَيْنُـــه مثل الشِّـــهاب المُشْـعَل

ونلاحظ أن الشعراء الثلاثة اهتموا بوصف هيئة الأسد ، والهيبة التى يبعثها فى النفس.

والألفاظ التى وردت فى وصف الأسد عند أبى زبيد تكررت فى هذا المجلس فى وصف جميل والأخطل له ، مما يدل أن هذه الألفاظ كانت مستخدمة فى تلك البيئة لدى الشعراء فى وصف الأسد .

وعلى سبيل المثال وصف أبو زبيد أنياب الأسد بقوله : " مشتبك الأنياب " وقال جميل: " يُخاف من أنيابه ويُذعر " . وقال الأخطل : " أنيابه فى فيه مثل الأنصل " ، فالأوصاف الثلاثة تدل على هيئة الأنياب المخيفة .

وفى وصف عينيه يقول أبو زبيد : " وعينَه مثل الشهاب المُضْرَم " ويقول الأخطل : " وعينَه مثل الشهاب المشعل " فالوصفان يدلان على توهج العينين .
ووصفه بالضيغم " الواسع الشدق " ورد عند أبى زبيد والأخطل . وتشبيه الرأس بالحجر المستدير الصلب ورد عند أبى زبيد : " وهامة كالحجر الململم " ، وعند الأخطل " ململم الهامة " ووصف الأسد بـ " قضاقض " ورد عند جميل والأخطل .

وصف الأسد فى شعر عروة بن الورد :

ورد فى شعر عروة وصف للأسد ، يقول (١):

تبغانىَ الأعـــداءُ إمـــا إلى دم وإمـــا عُراض الساعدين مصَـدَّراً

يَظلّ الأباء ســـاقطاً فـــوق متنه لـه العَـدْوة الأولى إذا القِرن أصْحرا

كأن خـــواتَ الرعـدِ رز زئيـره مـــن اللاء يســـكنّ الغريف بَعَشَّرا

---

١ – ديوان عروة صـــ٥٥ : ٥٦ العراض : العريضة . المصدر : العرض الصدر . الأباء : القصب . أصحر: برز إليه ، خوات الرعد : صوته . الرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى صاحبه . الغريف : الشجر الملتف . عثر : أرض قبل تبالة تسكنها الأسود . وتبالة : بلدة من أرض تهامة جنوبى الطائف .

فيصفه بأنه عريض الساعدين ، عريض الصدر ، رابـص فـوق أجمـة يتساقط قصبها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة ، فما هى إلا وثبة واحدة ليقتنصها وزئيره يشبه صوت الرعد . وهو ينتمى لأرض قبل تبالة ، تسكنها الأسود وتسمى عثرا .

وهذا الوصف العابر السريع لعروة بن الورد ، لا يقارن بوصف أبى زبيد للأسد ، إذ دقق أبو زبيد فى وصف أعضائه ، ودقق فى أجزائه ، وقارن بينها وبين الصور المادية التى كانت تحيط به ، فاتخذ منها أوجه شبه وضح فيها الصوّر ، وجسّد الأبعاد، ولوّن الزوايا ، ومن هنا كان من أوصف الشعراء للأسد لأن رآه عن قرب ، وتأمل حركاتـه . وأدرك مـا يصيبه وهو يهمّ بالهجوم ، ويترصد الفريسة ، وأحس بزمجرته المرعبة ، وبراثنه الخشنة الغليظة ، ومخالبه المعقوفة الرأس ثم أجاد تصوير كل هذا فى شعره ، مما جعل وصفه أدق ، حتى عُدّ من أوائل الشعراء الذين عُنوا بوصف الأسد ، وخصصوا جزءاً كبيراً من شعرهم له .

ثانياً : الرثاء

رثى أبو زبيد الخليفة عثمان بن عفان " رضى الله عنه " ورثى عبيد الله بن عمر بن الخطاب " رضى الله عنه " ، كما رثى ابن اخته اللجلاج فى قصيدة أعجبت القدماء(١). كما رثى صاحباً له علم بموته ، ورثى رجلاً من طىء قتلته أزد عمان . وواضح من رثاء أبى زبيد تأثره بالمعانى الدينية الإسلامية ، التى شاعت فى عصر صدر الإسلام . فهو يذكر آل ثمود وما كانوا عليه من عظمة وحضارة ، يقول فى رثاء اللجلاج(٢) :

من رجال كانوا جبالاً بحوراً ... فهم اليوم صحب آل ثمود
خان دهرٌ بهم وكانوا هم أهل ... عظيم الفِعَال والتمجيد
ويقول : كان عنى برد دروك بعد ... الله شغب المستعصب المريد

ويقول فى رثاء رجل من طىء(٣) :

غبت عنه وأنت لم تك عنه ... غائباً والمليك ربٌّ حسيبُ

ورثاؤه للخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، نشعر من خلاله بصدق العاطفة برغم أنه ورد فى عشرة أبيات فقط . فهو يرثى فيه تحمله للأمور الصعبة العظيمة من شئون الدولة الإسلامية ، وكرمه الزائد على الناس ، ورعايته للأيتام والأرامل والمسنين العَجَزَة . يقول (٤) :

- ثمت زكوا بما علّوا وما حفروا ... حملاً على الكوم حمال التكاليف
- إن كان مأوى وُفودِ الناس راحَ به ... رَهْطٌ إلى جَدَثٍ كالغار مَنْجُوفِ
- مأوى اليتيم ومأوى كُلّ نَهْيَلَةٍ ... تأوى إلى نَهْبَلٍ كالنسر عُلْفُوفِ

وأبو زبيد فى رثائه ، يصف القبر وصفاً واقعياً ، فهو فى أرض محفورة بالمسحاة(٥) ويحيط بجانبيه التراب. وقد كانت المساحى تحدث صوتاً بأيدى الحفارين وهم

---

١ - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى صـ١٢٨

٢ - ديوان أبى زبيد صـ٥٩٨

٣ - المرجع السبق صـ٥٨٧

٤ - الديوان صـ٦٥١

٥ - المِسْحاة : المجرفة

يحفرون القبر ، يقول :

على جَنابيه من مظلومة قِيَمَ ... تَبادرتْها مِساحٍ كالمناسيف

لها صواهل فى صُم السِلام كما ... صاح القَسيَّات فى أيدى الصياريف

كأنهن بأيدى القومِ فى كبدٍ ... طيرٌ تكشَّف عن جُون مزاحيف

وهو يأسى أن هالوا التراب فوق جسد الخليفة عثمان ، وزادوا فوقه تراباً كثيراً ، يقول :

مُقرمد ما علوا منه بقنطرةٍ ... زاداً من الزاد غثًّا غير مظلوف

ثمت زكوا بما علّوا وما حفروا ... حملاً على القوم حمّال التكاليف

ويتحسر عليه أن حمل القوم جسده الميت ، ودفنوه فى قبر محفور عرضاً كأنه الكهف . يقول :

إن كان مأوَى وفُودِ الناس راحَ به ... رَهْطٌ إلى جَدَثٍ كالغار مَنْجوفِ

وقد وضعوا فوق قبره الحجارة الضخمة . يقول :

إن كان عثمان أمسى فوقه أمَرٌ ... كراقب العُون فوق القنة الموفى

وكذلك رثاؤه للإمام على بن أبى طالب " رضى الله عنه " يبدو فيه التأثر الشديد لهذه الحادثة . فقد قتل والدولة الإسلامية فى أمسّ الحاجة للرجال المخلصين ويبدأ أبو زبيد قصيدته بمدح خلقه الكريم ، وبيان نسبه الشريف للرسول " صلى الله عليه وسلم " ، الذى اختاره الله لهداية هذه الأمة(١) :

إن الكرامَ على ما كان من خُلُقٍ ... رَهْطُ امرىء خارَه للدِّين مُخْتارُ .

ويمتدح فيه بصيرته بنفوس الناس ، وعلمه فى الدين ، الذى تعلمه من رسول الله " صلى الله عليه وسلم " . ولا يساويه فى علمه هذا عالم آخر .

طَبّ بَصيرٌ بأضغانِ الرجال وبِم ... يُعْدَل بخَبْرِ رسول الله أخْبارُ .

ويرجع أبو زبيد وفاته إلى أن وقته حان ، وهذه مشيئة الله فى خلقه ، وقد قدر الله هذه الوفاة ، بهذه الصورة ، ليدخله جناته ، ويدخل قاتله النار . يقول :

وقَطْرَةٌ قطرتْ إنحانَ موعدُها ... وكلُّ شىء له وقت ومِقْدارُ

حتى تنصَّلها فى مسجد طُهُرٍ ... على إمامِ هدىً إن مَعْشَرٌ جارُوا

حُمَّت ليَدْخُلَ جَنَّاتٍ أبو حَسَنٍ ... وأوجبَتْ بعدَه للقاتل النارُ .

---

١ - ديوان أبى زبيد صـ٦١١

وفى رثاء ابن اخته اللجلاج يتحسر عليه أن أُهيل عليه حمل ثقيل من التراب ، ووُضعت فوق القبر صخرة عظيمة . يقول :

فـى ضَريـحٍ عليه عبءٌ ثَقيـلٌ ... مـن تُـراب وجَنْـدَلٍ منضُـود

وهو فى رثائه لابن اخته اللجلاج يشعرنا بالحسرة الشديدة والحرقة البالغة فى قلبه عليه ، لما بينهما من صلة رحم . يقول(١) :

من حَميم يُنْسى الحَيَاءَ جليدَ القَو ... مِ حتـى تَـرَاهُ كالمَبْلـود

كـلُ ميتٍ قد اغْتَفـرتُ فـلا أو ... جـعُ مـن والـدٍ ومـن مولـود

غيـر أنَّ اللجلاج هـدَّ جَناحـى ... يـومَ فارقْتُـهُ بأعلـى الصَّعيد

ويقول :

يابن حَسْـنَاءَ شِقَّ نفسى يالجـ ... ـلاج خليَتنـى لدهـرٍ شـديد

ويقول :

إن تُفتْنى فلم أطِبْ عنك نفسـاً ... غيـر أنـى أُمَنـى بدهـرٍ كنـود

ويأسى عليه لأنه مات عطشاً بعد إصابته بحر العطش . يقول :

عن يمينِ الطريق عِنْدَ صَدَى حَرَّ ... ـانَ يدعـو بالليـل غيـر مَعْـودِ

صادياً يستغيثُ غيـرَ مُغـاثٍ ... ولقـد كـانَ عُصـرةَ المَنْجـودِ

ويعدد مآثره وكأنه ينوح عليه . فقد كان ملجأ للمكروبين . يقول :

من يُرِدْنى بسـوء كُـنتَ منـهُ ... كالشَّـجا بيـن حَلْقـه والوريـد

وقد كان كالأسد شجاعة ، ولكنه يفوقه فى طول القامة ، وكان يغلب خصمه عنوة ، يقول : أسـدٌ غيرُ حيدَرٍ ومُـلَّث ... يُطلـعُ الخَصْـمَ عَنـوةً فى كـؤود

وكان خطيبا مفوهاً فى المناظرات ، إذا عجز الخصوم . قال :

وخَطـيبٌ إذا تمعّـرت الأو ... جُـه يَوْمـاً فـى مأقِـطٍ مَشـهودِ

وقد كان جواداً ، كريماً وافر العطاء ، وإن بخل اللئماء . قال :

ومطيرُ اليدين بالخير للحمـد إذا ... صـنَّ كـلَّ جِبـس صَـلود

ولشدة كرمه كان يترك ناره مشتعلة بالليل ، وعليها القدر ممتلئة بالطعام ، لإكرام الضيوف . قال :

مُعْمل القِـدْرِ نابه النـار بالليل ... إذا هَـمَّ بعضُهُـم بخمـود

---

١ - ديوان أبى زبيد صـ٥٩٣

وقد كان يتسم بالبياض ، والإشراق ، واستدارة الوجه ، كأنه البدر . وكانت العيون تتطلع إليه لجماله . يقول :

أصلتَى تَسْمُو العُيونَ إليه ... مُستَنيرَ كالبدْرِ عامَ العُهود

وكان يتولى أمر ضعاف القوم ، ويقضى حوائجهم ، ويسير الليل كله مستقيماً ، قال :

ناطَ أمر الضِّعافِ واجتعَلَ الليـ ... ـلَ كحبل العاديةِ الممدود .

ثالثاً : المدح

لم يشغل المدح حيزاً كبيراً فى ديوان أبى زبيد ، إذ لم يجد التملق سبيلاً إلى الشاعر ، ولذلك فقد استعمله الخليفة عمر بن الخطاب " رضى الله عنه " على صدقات قومه ، وأدنى مجلسه عثمان بن عفان " رضى الله عنه " ، وصاحبه الوليد بن عُقبة مصاحبة طويلة. وقد كانت أغراضه الشعرية أغراضاً خاصة ، لازمت حياته ، جاشت فى نفسه، فأثارت فيها لواعج ومشاعر وأحاسيس . عبر عنها بهذه القصائد ، ولونها بعواطفه التى طبعت هذه المشاعر والأحاسيس .

وقد مدح الإمام علياً بقصيدة ، كما مدح الوليد بن عقبة بأربعة نصوص ، وله نص واحد فى مدح أبى وهب .

وهو فى مدحه الإمام علياً يمدحه بصفات تليق بإمام المسلمين كالحلم ، والتدين ، والشجاعة ، والفروسية ، يقول (١) :

إن علياً ساد بالتكرُّمِ ... والحِلمِ عند غايةِ التحلُّمِ

هَداهُ ربّى للصِّراطِ الأقوَمِ ... بأخذه الحِلَّ وترك المَحْرَمِ

كالليثِ عند اللَّبُولِ الضَّيْغَمِ ... يُرضِعْنَ أشبالاً ولَمَّا تُفطَمِ

فهو يُحامى غيرَةً ويَحتمى ... عبلُ الذراعين كريهُ شَدْقَمِ

ويقول :

ليثُ الليوث فى الصِّدام مِصْدَم ... وكَهمس الليل مِصَكّ مِلْدَم

---

١ - المرجع السابق صـ٦٦٢

ويمتدح صفاته الجسدية المميزة له ، فهو ممتلىء الذراعين " عبل الذراعين " وهو ضخم الجسم " نَهْد " ، وهو أبيض الوجه " ذو جبهة غَرّا " ، وأنفه ممتلىء " وأنف أختم ". وأما مدح الوليد بن عقبة ، فقد وردت فيه معظم مدائح أبى زبيد ، لما عُرف عنهما من صداقة ومنادمة استمرت حتى الموت .

من أشهر مدائحه فيه قصيدته التى قالها بعد أن ذُكِر لعثمان بن عفان " رضى الله عنه " أن الوليد يشرب الخمر ، وينادم أبا زبيد ، فعزله عن الكوفة ، وحدَّه فى الخمر . وفى القصيدة نشعر بصدق أبى زبيد فى حديثه عن الوليد ، فمن بداية القصيدة يتحسر أبو زبيد على ارتحال الوليد بن أروى " وهى أمه وأم عثمان بن عفان " بأحماله وأثقاله مكرهاً عن الكوفة ، والحداة يحثون الإبل على السرعة فى المسير لايتأنون . والإبل تتجه من الكوفة إلى المدينة تاركة بيت الوليد وكنيته " أبو وَهَب " المتسح ، الذى ابتناه إلى جوار المسجد خلاء تدوى فيه أصوات الرياح . يقول(١) :

من يرى العِيرَ لابن أَرْوَى على ظهـ	ـر المَرُوْرَى حُدَاتُهن عِجالُ
فُصعِداتٍ والبيتُ بيتُ أبى وَهَب	خَلاءً تحنُّ فيه الشَّمالُ

ويدافع عنه فى التهمة المنسوبة إليه ، وهى شربه الخمر ، فيذكر أنه لا يشرب الحرام وإنما شربه حلال طيب . يقول :

قولُهم شُربُك الحرامَ وقد كا	ن شرابٌ سوى الحرام حلال

ويعرِّض أبو زبيد بسعيد بن العاصى ، الذى ولى الكوفة ، حين عزل عثمان الوليد بن عقبة وكان سعيد بن العاصى هو الذى تولى جلد الوليد بن عقبة ، بأمر عثمان رضى الله عنه ، فيما اتهم به من شرب الخمر . يقول :

وأبَى الظاهرُ العداوةِ إلا	شَنآناً وقولَ مالا يُقال
من رجالٍ تقارضوا مُنكراتٍ	لينالوا الذى أرادوا فنالوا
غيرَ ما طالبينَ نَحْلاً ولكن	مالَ دهرٌ على أُناسٍ فمالوا

ويعلن مناصرته للوليد طوال حياته ، بماله ، وبلسانه ، وبيديه . يقول :

من يَخُنْكَ الصَّفاءَ أو يتبدّلْ	أو يزُلْ مثلما تَزول الظِّلالُ

---

١ - الديوان صـ٢٥٦

فاعلَمَنْ أنني أخوك أخو الودّ حياتي حتى تزولَ الجبالُ
ليس بخلٌ عليك عندي بمالٍ أبداً ما أقلّ نعلاً قبالُ
ولك النّصر باللسان وبالكف - فإذا كان لليدين نصال .

وفي نص آخر يعلن أنه يدين للوليد بالود الخالص ،ونصحه الصريح ، فقد نصره على مرى بن أوس بن حارثة ، وكانوا قد أخذوا منه إبلاً فاقتلعها منهم الوليد. يقول:

يا ليت شِعري بأنباءٍ أُنَبِّؤُها قد كان يَعيا بها صَدْري وتَقْديري
عن امرِىء ما يزِدْهُ الله من شَرَفٍ أفرح به ومَرىً غيرُ مسرور
إنّ الوليدَ له عندي وحقّ له وُدَّ الخليلِ ونُصحَ غيرُ مَذْخور

وهو يعترف بما للوليد من فضل عليه ، إذ رعاه ، وقربه إليه ، ونصره على أعدائه . ولم يقصر في ذلك ، فدفع عنه أذى القوم ، حتى ابتعدوا بشرهم عنه مضطرين متصاغرين ، غير مكترث بعاقبة ذلك . يقول :

إن امرأً خَصَّني عمداً مَوَدَّتَه على التنائي لعِندي غيرُ مكفور
لقد رعاني وأناني وأظهَرني على الأعادي بنصرٍ غير تَعْذير
فشَذَّبَ القومَ عنّي غيرَ مكترثٍ حتى تَناهَوْا على رغمٍ وتصغير

وهو يعلن حبه له فهو مستعد أن يفتديه بنفسه ، يقول :

نفسي فداءُ أبي وهب وقُلْ له يا أُمَّ عمرٍو فَحُلّي اليومَ أو سيري

وفي نص آخر يمتدح ما يتسم به الوليد من كرم وسماحة نفس ، وخصال طيبة ، وطبيعة حسنة مرغوبة ، يقول(١) :

كم عِنْدَهُ من نائلٍ وسَماحةٍ وشمائل مَيمُونةٍ وخلائق

وفي نص آخر يقسم أنه إن كان ببيت ببلدة لا يبيت فيها الوليد ، فحاله كحال الأعور، الذي يواجه الدنيا بعين واحدة ، يقول(٢) :

لَعمري لئن أمْسَى الوليدُ ببلدةٍ سواي لقد أمسيتُ للدهر مُعْوِرَا

ويعلن أنه يلتمس قربه ، وإن نأى عنه ، حتى لو استغرق السفر إليه شهوراً طويلة. يقول :

---

١ - الديوان صـ ٦٥٤

٢ - صـ ٦١٧

خـــلا أن رزقَ الله غادٍ ورائحَ وإنـــي لـــه راجٍ وإن مرّت أشهرا

رابعاً : الهجاء

شعره فى الهجاء ينحصر فـى خمسـة نصوص ، أشـهرها مـا قالـه فـى واقعـة ضربـة المكاء(١) . إذ ورد أن رجلاً من طىء من بنى حية ، نزل بـه رجل مـن بنـى الحـارث بن ذهل بن شيبان ، يقال له المكاء ، فذبح لـه شاة وسقاه مـن الخمـر ، فلمـا سكر الطائى ، قال : هَلُمَّ أفاخرك : أبنو حية أكرم أم بنو شيبان ؟ فقال له الشيبانى : حديث حسن ومنادمة كريمة ، أحب إلينا من المفاخرة . فقال الطائى : والله ما مدَّ رجل قط يداً أطول من يدى ! فقال الشيبانى : والله لئن أعدتها لأخضبنهـا مـن كوعهـا . فرفـع الطائى يده ، فخضبها من كوعها . فقال أبو زبيد قصيدته ومطلعها :

خبرتنـــا الركبانُ أن قد فخرتـم وفرحتـــم بضربـــة المُكَّـــاءِ (٢)

وفيها يهجو الشيبانى القاتل كما يهجو قومه ، وهـو يعيرهم بـأن النـاس تنـاقلوا خبر هذه الغدرة منهم التـى صـارت عـاراً عليهم ، فقد ظل أخوهم الشيبانى ضيفاً على الطائى يتمتعان بشرب الخمر غدوة ، وأكل اللحم المشوى ، ثم لمـا نظر الشيبانى فوجد الطائى قد لعبت الخمر برأسه وغلبت على عقلـه ، ولا يمكنـه دفع الخطر عن نفسه ، لم يعمل حساباً لحرمة النديم ، وهى حرمة واجبـة الرعايـة علـى أهل الوفـاء والكرم ، وأقدم على فعلته القبيحة . ويلجأ أبو زبيد إلـى استخدام النداء لقومـه كى يتعجبوا من هذه الفعلة النكراء . يقول :

خبرتنـــا الرَّكبانُ أن قد فَخَرْتُـم وفَـرِحْتُـمْ بضربـــةِ المُكَّـــاءِ
ولعَمْـــرِى لعارُهـــا كان أدنـــى لكُـــمُ مـــن تُقىً وحـــقِ وفـــاءِ
ظـــل ضيفـــاً لخوكُـــمُ لأخينـــا فـــى صَبـــوح ونعـــمَ وشـــواءِ
ثم لمـــا رآه راتـــت به الخمـــرُ وأن لا يريبُـــهُ بـــاتقـــاءِ
لم يَهَبْ حُـــرمةَ النديـم وحُقَّتْ يالقَومـــى للسَّـــواةِ السَّـــوآءِ

١- الأغانى جـ١٢ صـ١٢٣ - طبقات فحول الشعراء صـ١٠٣.

٢ - الديوان صـ٥٨١.

ويلجأ أبو زبيد فى هذه القصيدة إلى الفخر القبلى ، وبيان منزلة قبيلته بين القبائل ، وهو ينقل إليهم الأخبار القاطعة ، فكم من قبيلة تعرضنا لسفاهتها ثم أعرضنا عنها ، وكم من معشر قاتلونا فأزالتهم رماحنا قتلى ، وقد بدأوا هم بحربنا وكانوا يعيشون حياة الرخاء ، وبعد أن تهيأوا للقتال وتطاولوا بإشعال نار الحرب واصطلوا بحر نارها، طلبوا منا الصلح . لأنهم وجدونا أهل بأس ، صادقى الطعن فى المعركة ، يقول:

فاصدقونى وقد خبرتُم وقد ثا ... بت إليكم جوانبُ الأبناءِ
هل علمتم من مَعشر سافهونا ... ثم عَاشوا صفحاً ذوى غُلواءِ
كم أزالت رماحنا من قتيلٍ ... قاتلونا بنكبةٍ وشقاءِ
بغَوا حربنا إليهم وكانوا ... فى مقامٍ لو أبصروا ورخاءِ
ثم لما تَشَذَّرتْ وأنافتْ ... وتَصَلَّوا منها كريهَ الصِّلاءِ
طلبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ ... فأجَبْنا أنْ ليسَ حينَ بقاءِ
ولعمرى لقد لَقُوا أهل يأسٍ ... يَصْدُقونَ الطعانَ عند اللقاءِ

وهو يستهزىء بقوم الشيبانى ، ففعلتهم القبيحة لا تصدر من سادة الناس ، وإنما رعاعهم . يقول :

فاصدقونى أسَوقةً أم ملوكَ ... أنتمُ والملوكُ أهلُ عَلاءِ

وفى نهاية القصيدة يفخر أبو زبيد بشمائل قومه ، من تصبر وتعزى عند المصيبة ، وعدم الاستسلام للحزن ، وقد اشتهروا بالعزة والسيادة . ومجدهم يفوق كل مجد سواهم . يقول :

إننا معشر شمائلنا الصبر ود ... فع الأسى بحُسنِ العزاءِ
ولنا فوق كل مجد لواء ... فاضل فى التمام كل لواء .

ولأبى زبيد قصيدة قالها فى أجيره الذى حارب مع بهراء ضد تغلب (وهم أخوال أبى زبيد) قال ابن الكلبى فى خبره الذى ذكره اسحق عنه(١) : " هرب أبو زبيد من الإسلام ، فجاور بهراء ، فاستأجر منهم أجيراً لإبله ، فكان يُقَيِّله حلب الجمان والقبس ، وهما ناقتان كانتا له ، فلما كان يوم حابس ، وهو اليوم الذى التقت فيه

---

١ - الأغانى جـ١٢ صـ١٣٨

بهراء وتغلب ، خرج أجير أبى زبيد مع بهراء ، فقتل وانهزمت بهراء ، فمرَّ أبو زبيد به وهو يجود بنفسه ، فقال فيه هذه القصيدة " .

وورد (١) أن . " أبا زبيد ، وكان فى أخواله بنى تغلب ، وكان يقيم فيهم أكثر أيامه وكان له غلام يرعى إبله ، وأن بهراء غزت بنى تغلب ، فمروا بغلامه ، فدفع إليهم الإبل ، وقال : انطلقوا أبلكم على عورة القوم وأقاتل معكم . فصحبهم ، فالتقوا فهزمت تغلب بهراء ، وقتل العبد ، فقال أبو زبيد فى ذلك ..... "

وأبو زبيد يبدأ قصيدته بهجاء أجيره ، فيعيره بأنه عبد لا علم له بالحرب ، وليس من فرسانها ، ويلومه أن سعى إلى هؤلاء الشياطين من بنى تغلب ، مستعجلاً تاركاً ماكلف به هذا العبد من حلب الإبل ورعايتها . يقول (٢) :

هَـــل كنتَ فى منظَرٍ ومُسْـــتَمع ... عـــن نَصْـــرِ بَهْراءَ غير ذى فَرَسِ

تَســـعى إلـــى فتيـــةٍ الأراقـم واســـ ... ـــتعجلتَ الجُمـــانِ والقَبَـــسِ

ويسخر أبو زبيد من هذا الأجير ، الذى سعى إلى لقاء تغلب ، وقد ظنهم طعاماً لذيذاً سائغاً قريب المتناول ، يقول :

مُنتهـزاً من لَقُـوا ، حســـبتَهُم ... أحلـى وأشـــهى مـــن بارِدِ النَّبس

ويوقل أبو زبيد لأجيره : كيف تفعل هذا ، ولاثأر لك عندهم ، ولا لأحد فيهم مطمع من عزهم ، فكيف اجترأت عليهم ، أيها العبد ؟ يقول :

لا تِـــرَةً عندَهُـــم فتطلُبُهـــا ... ولاهُـــمُ نُهْـــزَةً لمختَلِـــسِ

ويمدح بنى تغلب أخواله ، فيصفهم بالسخاء ، وسرعة بذل المال ، وهم لا يضجرون من مسى الحرب ولا يهابونها ، ولا يقعدون عنها يقول :

جُـــودَ كـــرامَ ، إذا هُمَ نُدِبُـوا ... غيـــرُ لِئـــامٍ ضَجْـــرٍ ولا كُبُـس

كما يصفهم بالرزانة فى ناديهم ، لا يتكلمون ، فإذا تكلموا أبانوا عن أنفسهم ، يقول :

صُمْتَ عِظامُ الحُلـومِ إن قَعَـدُوا ... مِـــن غيـــرِ عِـــىّ بهم ولا خَرَسِ

ويذكر إعدادهم خيلهم وجمالهم ، لحرب عدوهم ، ليصبحوه مع الفجر . يقول :

تَقُـــوتُ أفراسَـــهُم نســـاؤُهُمَ ... يُزْجُـــونَ لِجْمالَهُـــمْ مـــع الغَلَـس

---

١ - الأغانى جـ١٢ صـ١٣٥ ، الشعر والشعراء صـ٣٠٧ ، طبقات فحول الشعراء صـ٦٠٦

٢ - ديوان أبى زبيد صـ٦٣٦

ويذكر التغلبى الذى قتل أجيره ، ويصف التغلبى إذ عبس لما رآه ، غضبا وحمية وشبهه بالأسد بأساً ونكايةً :

صَافَتَ ، لما خرجتَ منطلقاً ... جَهْمَ المُحيَّا كبايلٍ شَرِسِ

ويصف نصل رمحه بشدة لألائة ، وتوقده :

فجالَ ، فى كفِّهِ مُثَقَّفَةٌ ... تَلْمَعُ فيها كشُعْلَةِ القَبَسِ

ثم يصفه بأنه لا يكاد يبلغ ثأراً ، حتى يطلب ثأراً آخر مرة بعد مرة ، لكثرة قتاله وقتال قومه ، لا تنتهى نحولهم وأوتارهم ، فهو أبداً منغمس فى غمار الموت :

بكفِ حَرّان ، ثائرٍ بِتَمٍ ، ... طَلَّابِ وِتْرٍ ، فى الموت مُنْغَمِسِ .

ويتهزأ ويسخر بأجيره فيقول : إن تك قتلت فى حرب ، فإنك لست من أهل الحرب حتى أبكى عليك بكاء الذين يقتلون فى الحروب ، ولا أبكيك لشىء إلا للدلو والمرس ، إذ كنت حانقاً بالاستقاء من الآبار ، ما إليها من عمل العبيد والأجراء :

إما تقارَشْ بك الرماحُ ، فلا ... أبكِيكَ إلا للدَّلوِ والمَرَسِ .

ويستمر فى السخرية به ، فيذكر أنه راض عما اختاره لأجيره ، حين جعله يغدو على ناقته يحلبها . أما الأجير فقد لام نفسه ، وذم ما اختاره لنفسه ، من خوض المهالك فطُعن فى ثُغرة نحره وهلك :

حَمِدْتَ أمرى ، ولمتَ أمرك إذْ ... أمسكَ جَلْزُ السنان بالنَفَسِ

ويستمر أبو زبيد يهزأ به ، ويسخر . فيقول : تعرضت لهذه النار الجامحة من الحرب تحسبها نعمة ومتاعاً ، كما يتعرض المقرور للنار الموقدة ، يصطلى ويستدفىء ويستمتع ، فكان ما علمت من المكاره :

وقد تصلّيتَ حَرَّ نارِهِمُ ، ... كما تصَلَّى المقرورُ من قَرَسِ

وفى نهاية قصيدته يذكر حاله وهو يصارع الموت . فلم يكن يملك أن يحرك شيئاً من بدنه ، إلا كفه . وقد أقبلت عليه النسور ، واستدارت حوله ، وأقامت فى مكانها ناظرة إليه ، تترقبه حتى يهلك فتأكله ويشبه الشاعر اجتماع النسور حوله بالزالرات فى العرس ، وقد لبسن البياض ، وأخذن زينتهن وتجمعن ينتظرن الوليمة :

تَنُبُّ عَنْه كفٌّ بها رَمَقٌ ... طيراً عُطوفاً كزُوَّرِ العُرُسِ

وبعد قليل قضى نحبه ، فدلفت إليه النسور ثم علت جثته ، ثم أقبلت تنهشه ، فمنها ما يضرب بمنقاره فى اللحم ولم ينتزعه بعد ، ومنها ما هو قد نهش اللحم وأخذ يأكله:

فظلّ قليلٍ علون جُثّتَهُ فهُنَّ مِنْ والغٍ ومُنْتَهِسِ

ولأبى زبيد أبيات فى هجاء ضبيعه ، وفيها أيضاً يسخر من هذه العشيرة ، ويبين أنها ليست بذات شأن ، وأنها تنتمى بأصولها لعبد ضمته طىء إليها(١) :

أترعنى ضُبيعة أمرَ قومى وما كانت ضُبيعةُ للأمور

وهل كانت ضُبيعةُ غيرَ عبد ضَممناهُ إلى نسب شطير

وله ثلاثة أبيات فى هجاء من منعه صلته ، وهو يعتب عليه أن حلف ألا يبره ، أو يعطيه أبداً ، وهو يسخر منه فى البيت الأخير ، فيدعوه أن يترك له رزقه ، فى الطرق حية رصيد وهى التى ترصد المارة على الطريق لتلسع ، يقول(٢) :

أتيتك أنبتنى بواحدة تجعلُها منكَ آخرَ الأبد

أحلف ألا تبرّنى أبداً فإنّ فيها بَرْداً على كَبدى

إن كان يرزقنى إليك فأزمِ به فى ناظرَىْ حيةٍ على رَصَدِ

---

١ - الديوان صـ٦٢٩

٢ - المرجع السابق صـ٦٠٥

اللغة والصورة فى شعر أبى زبيد

أولاً : لغته

نلاحظ عند قراءة شعر أبى زبيد ، ظاهرة استخدامه لألفاظ غريبة ، تصعب كثير من معانيها على القارىء ، فيضطر لاستخدام المعجم ، وتتركز هذه الظاهرة فى الألفاظ الخاصة بوصف الأسد ، ولا نجد لهذه الغرابة أثراً يذكر فى مدحه ، أو رثائه ، أو هجائه ، إذ يبد أن ما يتصل بالأسد من وحشية وعنف يناسبه ألفاظ الغريب ونلاحظ أن الشاعر لا يكتفى بألفاظ غريبة بعينها فى وصف الأسد ، بل يحشدها فى القصيدة فى عبارات متتابعة يصعب متابعتها ، إلا بكثير من الجهد والتنقيب عن دلالات الألفاظ . فمما ورد فى وصفه للأسد قوله (١) :

فلا يعلقنكم مِهْصَرُ الناب عَنْبَسٌ ... عَبُوسٌ له خَلْق غليظٌ غضنفرُ
مُبِنٌّ بأعلى خَلِّ رَمْثان مُخدِرٌ ... عَفَرْنَى مذاكى الأسد منه تحجرُ
له زُبَرٌ كاللبد طارتْ رعابلاً ... وكتفان كالشرخين عبلٌ مُضَبَّرُ
كأن غضوناً من لهاه وحلقه ... مغارهَيام عُدْمُلى منهور
يُعرِّد منه ذو الحفاظ مدججاً ... ويَحبِقُ منه الأحمرىُّ المدوّر

ومنه أيضاً قوله(٢) :

ورد كأنَّ على أكتاده حَرجَا ... فى قُرطف من نَسيل النجت مخدورِ
أو ذا شصائب فى أحنائه شَمم ... رخو الملاط غبيطاً فوق صرصورِ
كأنَّ عينيه فى وَقْبَين من حَجَرٍ ... قِيضَا اقتياضاً بأطراف المناقيرِ
إذا تبهنَّس بمشى خِلْتَهُ وعِثا ... وَعى السواعد منه بعد تكسيرِ

وفى البيت التالى نلاحظ أنه فى شطر واحد ، يحشد ألفاظاً غريبة متتابعة فى وصفه للأسد يقول :

عبوسٌ شموسٌ مُصْلَخِدٌّ مُكابرٌ ... جرىءٌ على الأقران للقرن قاهرُ

---

١ - الديوان صـ٦٠٦

٢ - المرجع السابق صـ٦٢٣

وألفاظ الغريب لدى شاعرنا فرضها عليه الغرض الشعرى ، فالوحشية التى تتصل بوصف الأسد ، وما يتصل بها من خشونة ، قد فرضا على الشاعر استخدام هذا النوع من الألفاظ . يقول عنه صاحب الخزانة(١) : " وكان مغرىً بوصف الأسد بعبارات مهولة تزعج السامع ، حتى كأنه يشاهد الأسد فى حضوره " .

ويعرف السيوطى الغريب فيقول(٢) : " والغَرَابَةُ أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيُحتاج فى معرفتها إلى أن يُنقر عنها فى كتب اللغة المبسوطة . فينبغى أن نلاحظ أن للغرابة هنا مدلولاً خاصاً ، بمعنى أن تكون اللفظة غريبة على العرب الفصحاء . لا بالنسبة لاستعمال الناس عامة " .

وأورد ياقوت الحموى (٣) رواية على لسان الأصمعى ، قال : قال الأصمعى : "جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال : من أين جئت يا أصمعى ، قلت : من المربد ، قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها فأخذ يعدو فى الدّرج قائلاً : شمّرت فى الغريب يا أصمعى " .

وأبو زبيد لا يقتصر فى استخدام هذه الألفاظ الغريبة فى وصف الأسد شعراً فحسب ، بل لقد استخدمها فى وصفه النثرى للأسد ، فى مجلس عثمان بن عفان رضى الله عنه . وبدأ هذا الوصف بوصف جو الصحراء ، وهذا يؤكد أن الغرض الشعرى هو الذى فرض عليه استخدام هذا النوع من الألفاظ.

ويظهر فى ألفاظ أبى زبيد وفى معاينة الأثر الإسلامى واضحاً ، ومن المعروف أن الحياة الدينية وخاصة فى بدايات الدعوة الإسلامية ، كانت عاملاً مؤثراً كبيراً فى الشعر ، ويعد تأثر أبى زبيد بهذه الحياة الدينية ، صورة لتأثر المجتمع الأدبى فى ذلك العصر بهذه الحياة الدينية . فكثير من العناصر الإسلامية التى نجدها

---

١ - خزانة الأدب ، عبد القادر البغدادى جـ٤ صـ١٩٢

٢ - المزهر للسيوطى جـ١ صـ١٨٥

٣ - معجم الأدباء جـ٢ صـ٢٢

فى شعر أبى زبيد ، نجدها أيضاً فى شعر غيره من المعاصرين له ، مع تفاوت طبيعى بينهم فى مدى الاستجابة لهذه الحياة الدينية .

وقد ظهر هذا التأثر فى الشعر ، فنجد أبا زبيد فى معانيه وألفاظه متأثراً بالروح الإسلامية ويستخدم إلى حد ما الألفاظ الإسلامية التى كان يتداولها الشعراء المسلمون فى تلك الفترة . ويعد رثاؤه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولعثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ولعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خير دليل على هذا الأثر الإسلامى فى شعره . فهو يذكر آل ثمود فى قوله :

من رجالٍ كانوا جبالاً بحوراً ... فهُمُ اليومَ صحبُ آل ثمُود (١)

ويذكر أن المليك رب حسيب ، يقول :

غبت عنه وأنت لم تك عنه ... غائباً والمليك ربّ حسيبُ (٢)

ويقول حبر رسول الله :

طبٌّ بصيرٌ بأضغانِ الرجال ولم ... يُعْدَلْ بحَبْرِ رسول الله أحْبارُ (٣)

ورهط رسول الله :

إن الكرامَ على ما كان من خُلُقٍ ... رَهْطُ امرىء خارَه للدين مُخْتَارُ (٤)

ويذكر هداية الله للصراط الأقوم ، والحلال والحرام ، يقول :

هداهُ ربّى للصِّراطِ الأقْوَمِ ... بأخذه الحِلَّ وتَركِ المُحْرَمِ (٥)

ويذكر ضلالة تأميل نيل الخلود

إنَّ طولَ الحياةِ غيرُ سُعودِ ... وضَلالٌ تأميلُ نيلِ الخلودِ (٦)

ورد الدرأ بعد الله :

كانَ عنّى يَرُدّ دروُك بعدَ ... اللهِ شَغْبَ المستصعَبِ المِرِيد (٧)

---

١ - ديوان أبى زبيد صـ٥٩٨

٢ - المرجع السابق صـ٥٨٧

٣ - المرجع نفسه صـ٦١٢

٤ - صـ٦١١

٥ - صـ٦٦٢

٦ - صـ٥٩٢

٧ - صـ٦٠٠

ويقول بحمد الله :

بحمـــد اللـــه ثـــم فتـــى قـريشٍ ... أبـــى وهـب غدتْ بُطُناً غِزارا (١)

ويذكر الجنة والنار :

حُمِّتْ لِيَدْخُلَ جَنّاتٍ أبـــو حَسَـــنٍ ... وأُوجِبَتْ بعـــدَه للقاتـــل النـــارَ (٢)

وطهارة المسجد ، وإمامة على المسلمين :

حتى تنصَّلَها فـى مَســـجدٍ طَهُـــرٍ ... علـــى إمـــامِ هُدىً إن مَعْشَرٌ جارُوا

ويقول يزده الله شرفا :

حتى أمرِءٍ ما يَزِدْهُ الله من شَـرَفٍ ... أفـــرَحْ به ومَرىً غيرَ مســـرور (٣)

ويذكر إيمانه بالقضاء والقدر :

وقَطْرَةً قَطَرتْ إذْ حـــانَ موعـــدُها ... وكـــلُّ شـــىءٍ له وقت ومِقـدارُ (٤)

وهو يدفع الأسى بحسن العزاء . يقول :

إن تفْتَنى قلـــم أطِبْ عنك نفســـاً ... غيـــر أنـــى أُمَنـــى بدهرٍ كنود (٥)

صوره الشعرية

كان الخيال يشغل جانباً مهماً من جوانب شعر أبى زبيد ، وخاصة فى أوصافه . وكان أبو زبيد يركز على التشبيه فى الصور الجزئية ، التى يأتى بها ليعبر عن معنى معين، وهو يستعين بالتشبيه لنقل إيحاءاته وعاطفته . وجدير بالذكر أن الأشياء التى ركز عليها فى تشبيهاته ، كانت قوية العلاقة ببيئته ومجتمعه ونفسه . فمن صوره الشعرية فى وصف الأسد : " بسمر كالمحاجن فى قنوب (٦) " يصف براثن الأسد السمراء فى محاجنها ، ويشبهها بالعصا المعقفة الرأس المعوجة . ويقول :

---

١ – صـــ٦٢٠

٢ – صـــ٦١٢

٣ ديوان أبى زبيد صـــ٦٢١

٤ – المرجع السابق صـــ٦١٢

٥ – صـــ٦٠٥

٦ – صـــ٦٠١ قنب الأسد هو الغطاء الذى يدخل فيه مخالبه ليسترها ، بسمر : يعنى مخالبه ، المحاجن : جمع يحجن : وهو العصا المعقفة الرأس المعوجة . ومخالب الأسد حجن معقفة .

كـــأن بنحـــره وبســـاعديه عبيـــراً بـــات تعبـــؤه عروس (١)

يصف الأسد ، وعليه الدماء حول نحره وعلى ساعديه من أثر فتكه بالفريسة فيشبه هذه الدماء بالعبير ، الذى تصنعه وتخلطه العروس ، ويقصد بالعبير اخلاط الطيب التى تجمع بالزعفران ، وفيه لون حمرة يشبه الدم . ويقول :

كأن أثواب نقـــاد قـــدرن لـــه يعلـــو بخملتهـــا كهبـــاء هدابا (٢)

فيشبه جلد الأسد ، وشعره المتدلى ، بالقطيفة التى يرتديها الراعى . ويقول :

" لـه زبر كـاللبد طـارت رعـابلاً "(٣) فيشبه شعر الأسد ، الذى يعلو كاهله بالثياب الممزقة . ويقول :

ورد كـــأن على أكتاده حرجـــا فى قرطف من نسيل النجت مخدور (٤)

فيشبه ما على كتده من الشعر بالهودج المغطى بالقطيفة .

ويشبه براثن الأسد بالخطاطيف ، ومفردها خطاف وهو حديدة حجناء ، يختطف بها ، شبهها بالحديدة لحجنتها : يقول : " إذا عَلِقَتْ قِرْناً خطاطيفُ كفِّهِ " (٥)

ويشبه ما تغضن من جلد الأسد ، فوق حلقه ولهاه بمغار الرمل ، المتناثر الواسع يقول(٦) :

كـــأن غضونـــاً من لهاه وحلقـــه مغـــــار هيـــام عَثْمُـــلى منهـــور

ويشبه شعر الأسد الكثيف الذى يجلل جسده ، بمـن لبس برنساً يغطى جسمه كله . يقول(٧) :

---

١ – صـــ٦٠٣

٢ – الديوان صـــ٥٩٠ ، نقاد : صاحب النقد وهى الغنم الصغار ، قدرن له : طبعن عليه وجعلن على قدر جسمه ، كهباء : التى تضرب إلى الغبرة .

٣ – صـــ٦٠٧ ، الزبرة : الشعر المجتمع للأسد ، الرعابل : المتقطع .

٤ – الديوان صـــ٦٢٣ ، أكتاده : مغرز العنق فى الكاهل . الحرج : الهودج

٥ – صـــ٦١٩

٦ – صـــ٦٠٧ ، الغضون : ما تغضن بعضه على بعض من الجلد الذى فوق حلقه ولهاه ، الهيام : الرمل المتناثر ، العثملى : القديم ، المنهور : الواسع أو المتهدم .

٧ – صـــ٦٤٣

ضرغـامة أهرت الشدقين ذى لبـدٍ كأنـــه برنســاً فـى الغاب ملتفع

ويشبه عينى الأسد بفتحتين فى صخرة صلبة ، هى رأسه . ويشبه منظرها فى توهجها بالجمرتين . يقول(١) :

وعينان كالوَقْبَيْن فى قُبلِ صخـرةٍ يـُرى فيهمـا كالجمـرتين التبصُّرُ

ويشبه توهج عينيه فى الظلام ، بالنيران المشتعلة . يقول(٢) :

" وعيناه فى اللَّجى كجمر الغضا "

كما يشبه عينيه الحادتين ، ورأسه الصلب بنقرتين فى صخرة . وقد حُفرتا بفأس حديدية . يقول(٣) :

كـأن عينيـه فـى وَقبيـن من حجر قيضـا اقتياضـاً بأطـراف المناقير

ويشبه صوت الأسد المدوّى بالرعد . يقول(٤) : كأن اهتزامَ الرعد خالط جوفَه "

ويشبه صوت زئير الأسد بما فيه من حشرجة بالصوت الصادر من جوف رجل مريض بصدره(٥) . يقول :

للصـدر منـه عويلٌ فيه حشرجه كأنمـا هـى فـى أحشـاء مصدور

ويشبه أنياب الأسد الحداد ، إذا قلص عنها أشداقه بالخناجر . يقول(٦) :

يُـدِلُّ بأنيـابٍ حـدادٍ كأنـها إذا قَلَّـص الأشـداقَ عنهـا خَنَاجِرُ

ويشبه مشية الأسد بمن يمشى فى مكان تكثر فيه الرمال ، وقد كسر ساعداه ثم جبرتا، فهذه المشية يشبه بها مشية الأسد وهو يتبختر. يقول(٧) :

إذا تبهنَّسَ يمشـى خِلْتَـهُ وعِثـا وَعـى السـواعد منـه بعد تكسير

---

١ - صـ٦٠٨

٢ - ديوان أبى زبيد صـ٦١٣

٣ - المرجع السابق صـ٦٢٣

٤ - صـ٦٠٨

٥ - صـ٦٢٥

٦ - صـ٦١٣

٧ - صـ٦٢٣

ويشبه نصل الرمح ، فى شدة تلألؤه وتوقده بشعلة النار . يقول(١) :

فجـــال ، فـــى كفّـــهِ مُنَقَّفَـــةٌ تَلْمَـــعُ فيهـــا كشُـــعْلَةِ القَبَـــسِ

ويشبه النسور الجارحة التى تلتف حول الصريع ، ناظرة إليه تترقب هلاكه ، وهو يصارع الموت ، بالنساء الزائرات فى العُرس وقد لبسن البياض وأخذن زينتهن ، وتجمعن ينتظرن الوليمة ، يقول(٢) :

تَـــذُبُّ عنـــه كـــفٌّ بها رَمَـقٌ طيـــراً عُكـــوفـاً كـــزَوْر العُـــرُسِ

وهو يجعل الصدى والجبوب من أقارب الميت . يقول(٣) :

مـــن دمِ ضائـــعٍ تغـــيب عنـــه أقربـــوه إلا الصـــدى والجبـــوب

وهو يصف الكريم بأنه مطير اليدين بالخير . يقول(٤) :

ومطيـــرُ اليدين بالخير للحمـــد إذا ضـــنَّ كـــلُّ جِبـــس صَـــلود

ويشبه نفسه بالأسد ، كى يرهب أعداءه فى هذا البيت(٥) :

ولكنـــى ضُـــبـــارِمَـــةٌ جَمُـــوحٌ علـــى الأقـــران مُجْتَـــرِىءٌ خَبـــوسُ

وهو فى رثاء عثمان رضى الله عنه ، يشبه أصوات المساحى " وهى التى يُجرف بها التراب " وهى تحفر القبر ، بأصوات الدراهم ، والصيارفة ينتقدونها . يقول(٦) :

لها صواهل فى صُم السِّلام كما صـــاح القسِيَّات فى أيدى الصيارِيف

وفى البيت التالى لهذا البيت يشبه اختلاف المساحى فوق رؤوس الحفارين بأجنحة الطير ، يقول :

---

١ - صـــ٦٢٩

٢ - ديوان أبى زبيد صـــ٦٤٠

٣ - المرجع السابق صـــ٥٨٦ ، الصدى : ذكر البوم ، الجبوب : الحجارة أو التراب الذى هيل على القتيل المرثى .

٤ - صـــ٦٠١

٥ - صـــ٦٣٦

٦ - صـــ٦٥٠

كأنهـن بأيـدى القوم فى كبـدٍ طيـرٌ تكشّـف عـن جُون مزاحيف

ويشبه القبر بالغار المحفور عرضاً ، يقول (١) :

إن كان مأوَى وفُودِ الناس راحَ به رَهْـطٌ إلـى جَـدَثٍ كالغـار مَنْجوفِ

ويشبه ما جمع على قبره من الحجارة بحمار عانة ، قد أوفى على قنـة ينتظر مغيب الشمس فيرد الماء . يقول(٢) :

إن كان عُثمـانَ أمسَـى فوقَه أمَرٌ كـراقب العُون فوق القُنة الموفـى

الصورة ووحدة القصيدة

نلاحظ أن معظم قصائد أبى زبيد تضم أغراضاً خاصة ، أثارت فيه مشاعر وأحاسيس ، عبر عنها بهذه القصائد ، فهو لم يسخّر شعره للمدح والتكسب ، وكـانت معظم قصائده فى المديح للوليد بن عقبة الذى كان يلازمه فى حياته ، ودُفن إلى جواره بعد مماته . كذلك نلاحظ أنه لم يشغل نفسه بالصراع السياسى ، الذى كان قائماً آنذاك إبان مقتل عثمان بن عفان ، وإبان مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

وأما عن بناء القصيدة عنده ، فهو لا يتجه للطريقة التقليدية للشعراء الجاهليين وتابعهم فيها بعض المخضرمين . فهو لم يقف على الأطلال كغيره من معاصريه ، ولم يقدم لأغراضه بمقدمة غزلية ، ولم يصف الناقة ولا الفرس . فأغراضه فى شعره كانت محددة منذ بداية القصيدة لارتباطها بما يلائم حاجاته ، ويعبر عن رغباته ولأنه فيما يبدو كان حريصاً على الوحده الموضوعية فى شعره ، وربما أحس بأن هذه المقدمة ، تخل بوحدة القصيدة فى كثير من الأحيان ، وتبعد الشاعر عن الغرض المقصود مباشرة وقد أخل أبو زبيد بهذه الوحدة للموضوعية فى

---

١ - الديوان صـ٦٥١

٢ - صـ٦٥٢

القصيدة ، فى قصيدته التى قالها عندما انتُزعت منه أرضه ، بعد عزل الوليد بن عقبة ، إذ بدأها بمطلع غزلى يقول فيه :

ولقد مُتّ غيرَ أنّى حىٌّ ... يومَ باتت بودّها خنساءُ (١)
من بنى عامرٍ شِقٌّ نفسى ... قسمةً مثلما يُشقُّ الرداءُ
أشربتْ لونَ صُفرة فى بياضٍ ... وهى فى ذاك لَذْنَةً غَيْداءُ
كُلُّ عينٍ معّن يراها من النا ... س إليها مُديمةً حَولاءُ

وفى قصائده فى الأسد ، يغلب عليه أن يقص قصة المواجهة بين الأسد وفريسته ، وما أصاب الفريسة من ذعر وهلع عند رؤية الأسد ، ثم صورة الصراع بين الأسد وفريسته ، وكيف تغلب الأسد فى النهاية ، وأخذ ينهش من لحم الفريسة .
ومن هذه القصائد قصيدته التى مطلعها :

فباتوا يُدْلجُون ، وباتَ يَسْرى ... بَصيرَ بالدُّجى هَادٍ هَمُوسُ (٢)

ففى هذه القصيدة ، يروى أبو زبيد قصة جماعة يسيرون بالليل ، وفاجأهم الأسد فتصدى له سيد القوم ، فافترسه الأسد ، وفزعت الجماعة وغادرت المكان ، وتركت الرئيس فريسة للأسد ، الذى أخذ يختال ويتعاجب فى مشيته ، سعيداً بصنيعه، يقول:

فباتوا يُدْلجُون وباتَ يَسْرى ... بَصيرٌ بالدُّجى هَادٍ هَمُوسُ
بثنى القَريتين له عِيَالٌ ... بَنُوه ومُلمِعٌ نَصَفٌ ضَرُوسُ
غُدُنين بكل منعفر سليب ... يجاء به وقد نَسل الدريسُ
رأى بالمُستَوى سَفْراً وعِيْراً ... أُصَيْلالاً وجُنّتَهُ الغَميسُ
تواصوا بالسُّرى هجراً وقالوا ... إذا ما ابتزّ أمركم النعوسُ
فإياكم وهذا العرق واسمَوا ... لمومأةٍ مآخذها مليسُ
وحُقوا بالرحال على المطايا ... وضمّوا كل ذى قَرن وكيسوا
إلى أن عَرّسوا وأغَبَّ عنهم ... قريباً ما يُحَسُّ له حَسيسُ

---

١ - ديوان أبى زبيد صـ٥٧٧
٢ - المرجع السابق صـ٦٣٠ : ٦٣٤

خَلا أن العِتاقَ من المَطايا ... حسن به فهُنَّ إليه شُوسُ
فلما أنْ رآهم قد تَدانَوا ... أتاهُمْ وسط رَحْلِهِمْ يميس
فثار الزاجرون فزادَ منهم ... تقزّباً وواجهةَ ضَبيسُ
بنصل السيف ليس له مجنّ ... فصدَّ ولم يصادفه جسيمُ
فيضرب الشمال إلى حشاه ... وقد نادى وأخلفه الأنيمُ
بسمر كالمحالق في فُتوخٍ ... يقيها قَضّةَ الأرضِ الدخيسُ
فخرَّ السيف واختلفت يداه ... وكان بنفسه وقيت نفوس
وطار القوم شتى والمطايا ... وغودر في مكرهم الرسيس
مُعاود جُرأةٍ وقت الهوادى ... أشَمُّ كأنه رجل عبوس
إذا ضَمّتْ يداهُ إليه قِرْناً ... فَقَدْ أَوْدَى إذا بَلَغَ النميسُ
وجال كأنه فرسٌ صنيعٌ ... يجرّ جلاله نيل شموسُ
كأنّ بنحره وبمنكبيه ... عَبيراً بات تَعْبَؤُهُ عروس
يشُقُّ الزارَ يحمل عبقرياً ... قرى قد مَسّه منه مسيسُ
فذلك أن تلاقوه تفادوا ... ويحدث عنكم أمرٌ شكيسُ

وفى قصيدة أخرى يروى أيضاً قصة جماعة مرتحلين بالليل وعرّسوا فى وقت السحر، وكان الأسد يرقبهم ، وفاجأهم فتفرقت المطايا ولاذت بالفرار وحاولوا دفع الأسد بسيوفهم وفرشهم ، وحاولوا أن يزجروه ليبتعد عنهم ، فافترس أول فارس تقدم نحوه بسيفه ثم تلاه بمن بعده . يقول (١) :

فلما رأوا أن ليس شيءٌ يَرُدُّهم ... وقد أعجز الليلَ التمام وأبكروا
وقد بَرَّد الليل الطويل عليهم ... ومَرّ بهم لفْحٌ من القرّ أعسرُ
تنادوا بأن حُلّوا قليلاً وعَرّسوا ... وحفّوا الركابَ حولكم وتيسّروا
بعينيه لما عَرّسوا ورحالهم ... ومسقطهم والصبح قد كاد يسفر
ففاجأهم يستنّ ثانى عطفه ... له غبَبٌ كأنما بات يَمكرُ
فنادوا جميعاً بالسلاح مُبيّتاً ... وأصبح في حافاتهم يتنمّرُ
ونَدّت مَطاياهم فمن بين عاثر ... ومن بين مُودٍ بالبسيطة يَعْجِرُ

---

١ - الديوان صـ ٦٠٨ - ٦١١

وطاروا بأسيافٍ لهم وقطائف ... وكُلُهم يخفى الوعيدَ ويَزْجُرُ
فأوّلُ مَنْ لاقى يجُول بسَيْفه ... عظيم الحوايا قد شتا وهو أعجرُ
فقَضقَضَ بالنّابين قلة رأسه ... وَدقّ صَليفَ العُنْقِ والعُنقُ أصْعَرُ
ووافى به من كان يرجو إيابَهُ ... فصادفَ منه بعض ما كان يَحْذَرُ

ويشير فى البيت قبل الأخير من النص السابق إلى طريقة افتراس الأسد لفريسته ، إذ تناول الرأس بنابيه محاولاً تحطيمه ، ثم دق جانب عنقه فأماله . وكذلك قصيدته التى قالها فى كلبه "أكدر" حين لقيه الأسد فقتله . فهو يروى قصة مفادها أن كلبه أكدر خرج يتبختر ويختال كعادته ، حتى وصل إلى قرب البئر وهناك كان عرين الأسد . ونظر أكدر فوجد الأسد قريباً منه ، ثم رأى لبؤته وأشباله ، فظن أن قد وقع على صيد ثمين ، وما كاد يقترب منهم حتى انتابه الهلع ، وأفاق من حلمه الزائف وحاول الهروب .

ولكن الأسد تمكن منه وتناوله بأنيابه ، ولقى الكلب حتفه هناك . يقول(١) :

فجال أكدرُ مختالاً كعادته ... حتى إذا كان بين الحوض والعطنِ
لاقى لدى ثُلَل الأطواءِ داهيةً ... أسْرتْ وأكدرَ تحت الليل فى قَرَنِ
حَطّتْ به سُنَّةً ورهاء تطْرُدُهُ ... حتى تناهى إلى الأهوالِ فى سنَنِ
إلى مُقاربِ خَطْوِ الساعدَين له ... فوقَ السَّراةِ كَنِفْرى القارحِ الغضِنِ
ريبالُ ظلماء لاقَحْمٌ ولا ضَرَعٌ ... كالبغل حطّ به العجلان فى سكنِ
فأسرّيا وهما سِنّا همومهما ... إلى عرين كعُشِّ الأرمل اليفنِ
هذا بما علقت أظفاره بهم ... وظنّ أكدر غيرُ الأفن والحتنِ
حتى إذا ورد الغزوال وانتبهت ... لِحسّه لمّ أجْرٍ سِتّةٍ شُزُنِ
بادٍ جناجِنُها حصّاء قد أفلت ... لهن يبهرن تعبيراً على سدنِ
وظَنّ أكدرُ أن تموا ثمانية ... أن قد تجلّل أهل البيت باليُمنِ
فخافَ غِرّتهم لمانا لهمُ ... فحاصَ أكدر مشفياً من الوَسَنِ
بأربَعٍ كلُّها فى الخلق داهية ... غُضْفٍ عليهنّ ضافى اللحم واللبنِ
ألقاه متّخِذَ الأنيابِ جُنّتَه ... وكان بالليل ولاّجاً إلى الجَنَنِ

---

١ - الديوان صـ٦٦٦ : ٦٦٨

* المصادر *

- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، أشرف على لجنة الطبع د . إحسان عباس – بيروت ١٩٨٧م
- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر – القاهرة ١٩٧٧م .
- الأمالى لأبى على القالى البغدادى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م .
- تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م .
- جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرش ، دار المسيرة بيروت ١٩٨٣ م .
- الحيوان للجاحظ بتحقيق وشرح عبد السلام هارون – مطبعة الحلبى ١٣٥٧ هـ .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادى ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون – دار الكتاب العربى ١٩٦٨م .
- ديوان أبى زبيد الطائى جمعه نورى حمودى القيسى – العراق ١٩٦٧م .
- ديوان البحترى تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفى – دار المعارف ١٩٧٧م .
- ديوان عروة بن الورد تحقيق كرم البستانى – مكتبة صادر بيروت ١٩٥٣ .
- ديوان المتنبى شرحه عبد الرحمن البرقوقى ، نشر دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٧٨ م .
- شعراء النصرانية بعد الإسلام ، للأب لويس شيخو – المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٩٢٤م .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر – القاهرة ١٩٧٧م .
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، قرأة وشرحه محمود محمد شاكر ١٩٧٤م.
- الكامل فى اللغة والأدب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد–القاهرة ١٣٥٥هـ.

- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ، قدمه وحققه وعلق عليه د . أحمد الحوفى و د. بدوى طبانة - القاهرة ١٩٦٠م .
- المحبر للعلامة الإخبارى النسابة أبى جعفر محمد بن حبيب ، رواية أبى سعيد السكرى - المكتب التجارى بيروت .
- المزهر للسيوطى شرحه محمد جاد المولى ، على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت ١٩٨٦ م .
- معجم الأدباء لياقوت الحموى - دار إحياء التراث العربى بيروت .
- المعمرون والوصايا ، لأبى حاتم السجستانى - تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦١م .